نقد علم الاجتماع
في مصر
التبعية التاريخية
والحاجة إلى التوطين

بحث مقدم من

أ.د / نبيل السمالوطي

(العميد الأسبق لكلية الدراسات الإنسانية

وأستاذ علم الاجتماع _ جامعة الأزهر)

محتويات البحث

١) النشأة التاريخية لعلم الاجتماع في مصر والعالم العربي .

٢) خصوصية المجتمع المصري والحاجة إلى أطر نظرية مناسبة.

٣) نماذج للأطر التصورية الصالحة لتوجيه الدراسات الاجتماعية في مصر والعالم العربي والإسلامي .

ا- نموذج إرساء وتطبيق حضارة البناء والعمارة الشاملة .

ب - نموذج بناء المجتمع، وفن إنشاءأول دولة إسلامية .

ج - نموذج بناء الدولة المدنية التعاقدية الديمقراطية المنضبطة بالوحي (الشورى).

د - نموذج تحرير المرأة وإعلاء إنسانيتها .

هـ - نموذج العدل الإسلامي .

و - نموذج جعل التعليم والعلم وإعمال العقل والتفكير فرائض دينية .

٤) أهمية ومفهوم توطين علم الاجتماع .

٥) الفكر الاجتماعي بين الثقافة والدين .

٦) بين الوضعية والتوجيه الديني، وتاريخ إرساء الوضعية في علم الاجتماع .

٧) لماذا التأصيل أو التوجيه الإسلامي للعلم .

٨) أهم مصادر الفصل .

نشأة علم الاجتماع في مصر والعالم العربي :

ألقيت أول محاضرة في علم الاجتماع في مصر عام ١٩٠٨م، وهو عام تأسيس أول جامعة أهلية في مصر، وكانت الفترة من ١٩٢٤ ـ ١٩٣٦ هي فترة ظهور ما أطلق عليه علم الاجتماع العلمي. وقد دخلت هذه الأفكار مع ما جاء به (رفاعة رافع الطهطاوي) من أفكار من الغرب، وفي عام ١٩٢٤م تأسست الجامعة المصرية (جامعة القاهرة حإلىا) وأصبحت هي الجامعة الحكومية التي حلت محل الجامعة الأهلية، وفي هذه الفترة بدأت سلسلة من المحاضرات المنظمة في علم الاجتماع . ومع إنشاء الجامعة الأمريكية في القاهرة في منتصف العشرينيات شهدت مصرأول برنامج منظم في علم الأحياء، وقد كانالأجانب هم أول من شغل كراسي أستاذية علم الاجتماع مثل (إيفانز بريتشارد)، العالم الأنثرولوجي البريطانية (١٩٣٢ ـ ١٩٤٣م) و (أرثر موريس هو كارت) (١٩٣٤ـ١٩٣٨م) وقد شغل (راد كليف براون)، و(ردنك أورلخ) كراسي الأستاذية في جامعة الإسكندرية.

ـ يقال انتشرت خلال هذه الفترة الفلسفة الوضعية التي جاء بها (أوجست كونت) الذي يقل عنه مؤسس علم الاجتماع في فرنسا، مع أنه نقل الكثير من أفكار وإبداعات ابن خلدون، كما سادت أفكار المدرسة الأنثربولوجية الإنجليزية مثل أفكار (بريتشارد، براون، ومإلسنوفسكي)، وهذا يعني سيادة الأفكار التحررية السائدة في الغرب والتي تتصادم في بعض جوانبها مع ثقافتنا المصرية العربية الإسلامية .

وقد نما علم الاجتماع في مصر بشكل سريع جدا خاصة خلال مرحلة إلخمسينات والستينات والسبعينات من القرن العشرين، من خلال فتح أقسام متعددة لعلم الاجتماع في الجامعات المصرية من القاهرة إلى أسوان.

ـ كما امتدت دراسة علم الاجتماع من مصر إلى الدول العربية كالكويت وبغداد والدوحة والإمارات شرقا، وغربا حتى فاس والرباط، ودخل علم الاجتماع كقسم داخل أعرق الجامعات الإسلامية ـ جامعة الأزهر الشريف، وجامعة محمد بن سعود الإسلامية وغيرهما . وقد كان الأمل كبيرا في هذا العلم أن يقدم تشخيصا وعلاجا لأمراض الأمة، وعوامل تخلفها، وأن يحل مشكلاتها . لكن هذا الأمل لم يتحقق أو على الأقل لم يتحقق بالشكل المطلوب.

وقد أكد البعض أن الكثير من الدول في المجتمعات تقدمت ونمت بشكل ملفت دون وجود علماء أو باحثين في علم الاجتماع مثل إلىابان إلى ثلاثينات القرن الماضي، والصين إلى عقود متأخرة من القرن العشرين .

ـ لا شك أن إسهام علم الاجتماع في مصر والعالم العربي في مواجهة الأزمات والمشكلات، وفي تنمية وتقدم المجتمع أمر مشكوك فيه، خاصة وأن أغلب من تولى تدريس هذا العلم من أبناء المدرسة الأوروبية أو الروسية، وكان علم الاجتماع قد تبنى النظريات والأطروحات الغربية، وكانت أغلب الكتب إما ترجمات للغرب أو كتب مدرسية للدراسة . ومن النادر جدا ظهور كتب أو مؤلفات نابعة من الواقع الثقافي والتاريخي والديني القومي أو الوطني للدول العربية، ويحاول تحقيق آمال أبنائها ويواجه أزماتها ومشكلاتها.

كانت أغلب الابحاث في الدراسات مفتقدة إلى الابداع وتعاني من التبعية للغرب وهي الدول التي درس فيها أول اساتذة لهذا العلم، وهم من أدخلوه إلى مصر، وأصبحت الدراسات السوسيولوجية لا تركز على المضامين الوطنية بقدر تركيزها على طقوس البحث العلمي المنهجية التى وضعها الغربيون مثل دوركايم وباريتو وفيبر على الرغم من أن واضعيها لم يلتزموا بها أصلا، فقد كانت نظرياتهم ليست إفرازا لبحث علمي موضوعي، ولكنها كانت انعكاسا لفلسفات وأيديولوجيات وأهداف سياسية محددة .

وإذاكان علم الاجتماع في عالمنا العربي المعاصر على مستوى النظريات والمناهج والتطبيقات الميدانية مستورد بكامله من الغرب، فقد كان من الطبيعي ألا يسهم في فهم وتشخيص وعلاج أزماتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها، وبالتإلى لا يسهم إيجابيا في تحقيق أهدافنا الوطنية والقومية في النمو والتقدم والإسهام الفعال في الحضارة العالمية قيما وأخلاقا وعلما وتكنولوجيا ... إلخ .

ويمكن التأريخ لبداية اتصال مصر بالغرب، وبداية التبعية الغربية في مجال علم الاجتماع للغرب ببداية احتلال الإنجليز للهند، وفرنسا لمصر وشمال إفريقيا، وأوائل اتصال العثمانيين بالغرب من خلال التجارة والبعثات العلمية والدبلوماسية، وتسربت المفاهيم والتصورات والأفكار الغربية إلى ثقافتنا الإسلامية وأصبحت تسيطر على أفكار وعقول بعض الناس والباحثين والعلماء .

ـ لقد تمت مناقشة وبحث العديد من القضايا التى تعد في عمق علم الاجتماع في مصر قبل معرفة هذا العلم، وقبل وصوله إلى الجامعات، وقبل وجود أساتذة وطلاب لهذا العلم في مصر وفي العالم العربي كله، فقد

تنأولت أفكار (قاسم أمين)، و(أحمد فتحي زغلول) (وبطرس البستاني) و (أمين الريحاني) وغيرهم، الكثير من القضايا التى يتنأولها علم الاجتماعإليوم بالدراسة والبحث، وكانت أغلب هذه القضايا تدور حول بعض الأمور المهمة مثل مايلي :

ا) قضايا الحريات الشخصية والاجتماعية، وحق التعبير عن الرأي وأهمية الحياة النيابية، وكانت أغلب الكتابات متأثرة بمبادىء الثورة الفرنسية التي ركزت على الحرية والإخاء والمساواة، مع أن الإسلام ركز على هذه القضايا بشكل أكثر عمقا وعلمية وواقعية وتطبيقا . ويمكن الرجوع إلى دراساتى في هذا المجال .((١))

ب) الدعوة إلى فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية أو فصل الدين عن الحياة كما فعلت أوروبا في انفصال المجتمع والدولة عن الكنيسة في عصر النهضة، مع أنالإسلام الصحيح أكد على ضرورة وجود دولة مدنية يختار رئيسها من الشعب ممثلا فى أهل الحل والعقد، أو العلماء أو ممثلي الأمة، ثم البيعة التي هي بمثابة انتخاب مباشر وحر من المواطنين .

ج) الدعوة إلى تحرير المرأة من العادات والتقإليد التي تحد من حريتها في التعليم، والعمل واشتغال المرأة بالمناصب العامة في المجتمع وقضايا الدولة اقتداءاً بالغرب وهذا ما أكده الإسلام قبل ١٤٠٠ سنة بضوابط تمنع الإنحراف ، وتحفظ للمرأة حقوقها وحريتها وكرامتها .

---

(١)راجع كتابي : العطاء الاسلامى للحضارة الانسانية ٢٠٠٩ م من إصدارات رابطة الجامعات الإسلامية.

ويلاحظ أن هذه القضايا التي تتصل بالحريات والدولة المدنية وحقوق وتحرير المرأة وغيرها ناقشها الكتاب في هذه المرحلة من خلال تبني المنظورات الغربية الليبرإلية، وهي من أهم القضايا التي عالجها علم الاجتماع بعد ظهورها في مصر والعالم العربي، وقد حمل علم الاجتماع بعد ظهوره هذا المنظور الغربي الليبرإلى البعيد تماما عن واقعنا التاريخي والوطني والديني والثقافي .

وبالرجوع إلى التاريخ نجد أن أول رسالة حصل عليها مصري كانت رسالة (منصور فهمي)[(٢)] الذي أرسلته الجامعة المصرية وحصل على الدكتوراة في علم الاجتماع من باريس في موضوع (حالة المرأة في التقإلىد الإسلامية والتصور الإسلامي) وأشرف عليها عالم الاجتماعإلىهودي (لوسيان ليفي بريل) صاحب كتاب (العقلية السابقة على المنطق) التي اعتبر فيها سكان العالم الثالث غير قادرين على التفكير المنطقي مثل سكان أوروبا، ولا شك أن هذه نزعة عنصرية غير موضوعية وغير مقبولة، واتضح كذبها علميا وواقعيا .

ويشير(منصور فهمي) في بداية الرسالة إلى:(أنه سيغضب كثيرا من المواطنين، لكنه أراد تحري الحقيقة)، وقد جاءت الرسالة في الكثير من جوانبها مخالفة للإسلام الوسطي الصحيح،ومخالفة للموضوعية العلمية التي يجب أن يتسم بها البحث العلمي، ومخالفة للحقائق الاجتماعية والتاريخية .

---

(٢)راجع المكتبة الإسلامية على شبكة الإسلام LIBRARY ISLA WEB علم الاجتماع : قرن كامل من الفشل في مصر.

- ويكفي للتدليل على هذا بذكر بعض العناوين الواردة بالرسالة، فهناك عنوان:

(محمد يشرع للجميع ويستثني من ذلك نفسه)، ثم (زيجات محمد)، ثم (حياته المنزلية)، ثم (آراؤه المعادية للمرأة)، ثم (آراؤه المناصرة للمرأة)، ولا شك أنه في هذا تأثر بفكر أستاذه إلدهودي (بريل)، وكما يشير(د.حسن شحاته سعفان) فإن الباحث لايجد فصلا يحتوي على نقد لاذع للنبي ﷺ بالباطل مثل هذا الفصل في رسالة (منصور فهمي) المصري الذي حصل على أول رسالة للدكتوراه في علم الاجتماع من فرنسا، ويذكر أن الباحث المذكور قد تراجع فيما بعد.

ولعل الرسالة الجامعية التى حصل عليها (طه حسين) من باريس عن (فلسفة ابن خلدون) تحت إشراف (كازانوفا) تدخل في مجال علم الاجتماع على الرغم من أن صاحبها من كبار أدباء مصر .

وما ذاك إلا لأن(ابن خلدون) هو المؤسس الحقيقي لعلم العمران البشري، الذى أطلق عليه (أوجست كونت) بعد خمسة قرون (علم الاجتماع) . . وكان ابن خلدون قد حدد موضوعه ومناهجه وقضاياه، وأبدع في العديد من النظريات في هذا العلم مثل نظرية العصبية وتكوين المجتمع والتغير الاجتماعي الدوري، والتفاعل بين الإنسان والبيئة ونظرية القيمة وغيرها من النظريات حول الأسرة والسياسة والتربية وغيرها ....

والقارئ لرسالة طه حسين حول فلسفة ابن خدون يدرك أنه كان له مجموعة من الأراء حول ابن خلدون ومقدمته، تختلف اختلافا جذريا عن أغلب أراء علماء الاجتماع العرب والأجانب الذين تخصصوا في دراسة هذا العالم الموسوعي . ويكمن إلخلاف في عدة نقاط أبرزها أمرين هما :

الأول : إنكار أن ابن خلدون هو مؤسس علم الاجتماع أو حتى ممهدا لقيامه، حيث يقول: (أعتقد أن تلك مبالغة كبيرة أو جسيمة)، ويكفي لنقد هذا الرأى الرجوع إلى دراسات (علي عبد الواحد وافي) و(حسن الساعاتي)[٣] وغيرهم، وإلىأكثر من عشرين مؤتمرا متخصصا لدراسة الأعمال الموسوعية لابن خلدون، وكلها تؤكد أنه مؤسس علم الاجتماع بلا شك، وهذا ما أكده العديد من علماء الغرب الموضوعيين المنصفين، من بينهم جورج جيرفتسون.

الثاني : تأكيده على أن إبداع ابن خلدون إنما يتمثل في فصل السياسة عن الأخلاق واللاهوت، وناقش السياسة في صورتها العلمية بعيدا عن الدين، ولا شك أن هذا الرأي يجانبه الصواب، فتصوير ابن خلدون على أنه يؤيد العلمانية، ويفصل بين السياسة والشرع غير صحيح، فقد كان ينطلق في كل دراساته التاريخية والاجتماعية والشرعية وغيرها من الكتاب والسنة والثقافة الإسلامية ومن الفهم المتكامل لنظم ومؤسسات المجتمع الإنساني، فيمايطلق عليه إلىوم التساند التوظيفي بين مكونات المجتمع .

ويلاحظ أن العلم الذي اكتشفه وهو علم العمران البشري الذي يطلق عليه الأن علم الاجتماع، انطلق في تسميته من الأية الكريمة)

◆❑➔♎☠↗🖃❐🕯◆⌖☼❐🕮⌘♊♌♓✎⬘⮟⬀❻☛❀🖋✂⇔🏳

---

[٣]راجع كتاب : على عبد الواحد وافي : عبد الرحمن بن خلدون ، وزارة الثقافة ، أعلام العرب ٤ ، مكتبة مصر ١٩٦٢ م

▫🗗❸🔗□🗕□✂◆□🗕⇔♦➔☺🖂❷♦🗗↗). وقد أكد في كل دراساته أن الشرع إنما جاء لسياسة الدنيا وتحقيق مصالح الإنسان في الدنيا والآخرة .

ـ وقد كانأول مؤلف بالعربية في (علم الاجتماع) هو كتاب (نيقولا الحداد) سنة ١٩٢٥م بعنوان : (علم الاجتماع :حياة الهيئة الاجتماعية وتطورها) ـ وقد عكس هذا المؤلف الأول في علم لاجتماع تأثر صاحبه بالنظريات العضوية والتطورية التى سادت في أوروبا، وتبنيه للدارونية الاجتماعية المعتمدة على كتاب دارون (في أصل الأنواع الحية)، كما تأثر بـ (هربرت سبنسر) مؤسس علم الاجتماع في انجلترا، وقد تبنى نظرية التطور في تطبيقاتها الاجتماعية .

وقد ترجم الحداد نصوصا كاملة من سبنسر في كتابة المذكور . ويؤكد رفضه لنظرية إلخلق المستقل للإنسان، الذى أكدته الرسالات السماوية، ويقول تحت عنوان(ابتدأت الإنسانية بتفوق جماعة واحدة) .

أنه يؤمن أن النوع الإنساني تطور عن أنواع أدنى منه، وأن هذا التطور ينطبق على المجتمعات الإنسانية التى تطورت عن المملكة الحيوانية . ويؤكد عند حديثه عن الدين، أن الدين تطور عن السحر والعرافة، وهذا السحر والعرافة بدورهما تطورا عن خرافات التشاؤم والتفاؤل . ويدلل على هذا أن هناك بعض القبائل الهمجية المنحطة باقية إلبإلىوم لديها هذه إلخرافات والأوهام . [٤]

---

(٤)راجع الموقع السابق على الانترنت . المكتبة الإسلامية LIBERARY ISLAM WEB

وفي عام ١٩٢٥م تحولت الجامعة المصرية من جامعة أهلية إلى جامعة حكومية، ثم أنشىءفي كلية الآداب قسم لتدريس (علم الاجتماع) ينطلق من المدرسة الفرنسية التى أسسها (كونت) و (دوركايم) . وكان من أوائل من درسوا هذا العلم في ذلك القسم د.عبد العزيز عزت، الذى أصدر كتابا بعنوان (علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية)، وفي ١٩٥٣م أصدر د. حسن شحاته سعفان دراسة بعنوان (أسس علم الاجتماع)، وصدر له سنة ١٩٥١ م دراسة بعنوان (مشكلات المجتمع المصري) ، وفي سنة ١٩٥٧م دراسة بعنوان (تاريخ الفكر الاجتماعي)، وفي سنة ١٩٥٨م (الدين والمجتمع) .

وظهرت دراسات متعددة للدكتور على عبد الواحد وافي أهمها: (عبد الرحمن بن خلدون) سنة ١٩٦٢ م، و(الأسرة والمجتمع) ودراسات أخرى كثيرة حول اللغة والمجتمع والملكية...إلخ .

وفي سوريا صدرت دراسة للدكتور عبد الكريم إلىافي سنة ١٩٥٢ م، بعنوان (تمهيد في علم الاجتماع)، وصدرت دراسات أخرى لباحثين مصريين مهمين مثل دراسة د. حسن الساعاتي سنة ١٩٥١م بعنوان (علم الاجتماع الجنائي)، وأصدر دراسة سنة ١٩٦٢م بعنوان (التصنيع والعمران) وقد طبق فيها دراسة ميدانية .

وفي منتصف إلخمسينيات أنشأ المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية به أقساماً متعددة متخصصة في التصنيع، الريف، والأسرة، الرأي العام، الجريمة وغيرها .. وتبنى دراسات ميدانية في المجتمع المصري تعالج قضاياه ومشكلاته.

وفي المغرب العربي ارتبطت نشأة علم الاجتماع بالسلطة الاستعمارية الفرنسية، التي استهدفت تماما البعد عن الهوية الإسلامية، وركزت بعض الأبحاث على الفروق بين الغرب والبربر. واستهدف علم الاجتماع في المغرب العربي توفير للمعلومات المطلوبة لدى رجال الإدارة الفرنسية، والكثير من الدراسات هناك أجراها فرنسيون وكان لها أهدافا سياسية بعيدة تماما عن الأبعاد العربية أو الوطنية أو الإسلامية وتوحيد العالم العربي أو استقلاله وتنميته وتقدمه .

وإذا كنا نؤرخ لبدايات علم الاجتماع في مصر، فلابد من الإشارة إلى التوجه الماركسي نتيجه للاتجاه الاشتراكي الذي ساد مصر خلال فترة الستينيات، وابتعاث العديد من الدارسين إلى روسيا ودول الاتحاد السوفيتي سابقا، وقد كانوا يجبرون على دراسة الماركسية، والكثير منهم عاد مؤمنا بهذا التوجه الأكثر خطورة على العرب والمسلمين من التوجه الليبرإلى الغربي والذي يتصادم في كثير من جوانبه مع الموروث الديني والثقافي والوطني للمجتمع المصري .

وقد ترجم كتاب (أوسيبوف) بعنوان (قضايا علم الاجتماع): دراسة سوفيتية نقدية لعلم الاجتماع الرأسمإلى، وكانأول عمل سوسيولوجي ماركسي يترجم للعربية، ترجمة (د. سمير نعيم)، (ود. فرج أحمد فرج)، وقدم له (د. عاطف غيث) ١٩٧٠م . وهذا التوجه الماركسي سبق أن أفرد له(د. مصطفى إلخشاب) فصلا في كتابه (علم الاجتماع ومدارسه)، كذلك كتب(السيد ياسين)عدة مقالات في عدة مجالات مختلفة عن علم الاجتماع الماركسي، وكتب (د. سيد عويس) سنة ١٩٧٠م مقالا بعنوان: (علم الاجتماع في بلد اشتراكي) عرض فيه الملامح الأساسية لبحوث

علم الاجتماع في روسيا سواء من حيث النظرة والموضوع أو المنهج وأساليب البحث .

وفي سنة ١٩٧٣م، ترجم للعربية كتاب (أسي بوبوف) بعنوان (نقد علم الاجتماع البرجوازي المعاصر)[٥]، وقد سيطرت الماركسية على فكر بعض الباحثين في علم الاجتماع في مصر وتونس والمغرب خلال مرحلة الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين.

وقد خرج بعض الباحثين بعد دراسة تاريخ علم الاجتماع في مصر والعالم العربي، ببعض الملاحظات أهمها مايلي :

١) غالبية رواد علم الاجتماع الذين أسسوا هذا العلم، تخرجوا في جامعات فرنسية أو انجليزية، وقد تأثرأغلبهم بالتوجهات الليبرلية السائدة هناك .

٢) أسهم الأساتذة الأجانب الذين أسسواعلم الاجتماع في مصر وهم كثر . منهم (جورج هوستإلييه) البلجيكي، وكان رئيسا لمعهد سولفي الاجتماعي الذي كانأول استإذا لعلم الاجتماع في الجامعة المصرية، ومنهم (اميل بربيه) الفرنسي، و(ايفانز بريتشارد)، و(هوكارت) الانجليزيان وغيرهم في تشكيل توجيهات علم الاجتماع في بلدنا مصر .

وقد كان لهذا أثره على لغة ومضمون وتوجهات هذا العلم في الجامعات المصرية .

---

(٥)المصدر السابق.

. ولا شك أن توجهات اساتذة علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الأجانب الذين أسهموا في تأسيس علم الاجتماع في مصر، الذين أسهموا جنبا إلى جنب مع المصريين الذين الذين حصلوا على مهاراتهم فيإلخارج، أثرت بلا شك على الطلاب والدارسين لهذا العلم منذ نشأته وحتى إلىوم .

ولهذا فقد وجدنا في دراسة تقويمية قمنا بها على علماء الاجتماع في مصر والعالم العربي مايلى :

١) أن المدارس الغالبة التي ينطلق منها الباحثون في دراساتهم هى البنائية الوظيفية في الأساس، ثم الرمزية التفاعلية، والتبادلية السلوكية وغيرها ..، وهي كلها مدارس علم الاجتماع الليبرإلى الغربي، وهذه التبعية منعت أغلب الدارسين من الابداع والابتكار أو الانطلاق من الواقع التاريخي والثقافي والديني في مصر والعالم العربي، خاصة وأن النظريات الغربية وحدها لا تصلح لفهم وتشخيص واقعنا العربي

٢) صدرت غالبية الكتب العلمية أو الدراسية في شكل عرض أو ترجمة لعلماء اجتماع أوربيين أو أمريكيين . مثل كونت، ودوركايم، وفيبر، وموسى، وبارسونز، وميرتون، وسمنر ...إلخ[٦]. دون ربط أو توظيف لهذه المادة العلمية في الواقع المصري والعربي والإسلامي . فهي مجرد عرض وتجميع لنظريات وافكار ودراسات غربية دون ربطها بواقعنا ومشكلاتنا وأزماتنا، أو واقعنا التاريخي والثقافي والديني. ويعطي البعض مثالا على ذلك بسلسلة علم الاجتماع المعاصر التي صدر منها ما يزيد عن ستين كتابا .

---

[٦]راجع : علم الاجتماع : قرن كامل من الفشل في مصر والعالم العربي (موقع نت).

٣) أغلبالذين درسوا علم الاجتماع منالمؤسسين في مصر لم يكونوا على وعي وفهم عميق بالقراءة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لديننا الإسلامي الحنيف ولثوابته إلخمسة وهى العقيدة، والمقاصد الشرعية، والأحكام الشرعية قطعية الثبوت والدلالة، ومنظمة القيم والأخلاق، والعبادات.

إذاكانت نشأة علم الاجتماع في أوروبا كانت استجابة لحاجة هذا المجتمع بعد الثورات الأوروبية خاصة الفرنسية إلى علم يحقق أهداف الثورة البرجوازية، ويحقق السيادة الرأسمالية للرأسمإليين، والقضاء على الصراعات المجتمعية ومواجهة مشكلات وأزمات دول الغرب في تحولها التاريخي والاجتماعي نحو الحرية والديمقراطية والليبرلية، فإن علم الاجتماع عندنا في مصر نشأ بمعزل عن حاجات المجتمع، وكان تقليدا لما تولد في الغرب من أفكار ونظريات وتطبيقات انبثقت من بيئة مخالفة لنا تماما، ولتحقيق أهداف بعضها يناقض أهدافنا الوطنية والقيمية والثقافية والتنموية، ولا شك ان الاستعمار، والعلماء الأجانب الذين درسوا في مصر، وبعض المصريين الذين درسوا في إلخارج، أسهموا في تعميق هوه التبعية للفكر الغربي أو الشرقي[٧] . وقد أسهم تمويل البحوث الاجتماعية من جانب مؤسسات غربية في دعم هذه التبعية والبعد عن المنطلقات والأهداف الوطنية، وبالتإلى البعد عن الاستقلال لعلم الاجتماع وتوظيفه في خدمة مجتمعاتنا .

---

[٧]كتابنا بعنوان : نحو توجيه إسلامي لمناهج علم الاجتماع ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٦ م .

لعل هذا ما جعل أغلب دراسات علم الاجتماع حتى إلىوم تحمل ملامح العلمانية والعقلية الغربية غير المنضبطة بالموروث الثقافي والديني، والليبرإلىة أو التحررية، والمادية ... إلخ . وجعله يبتعد عن المنطلقات الوطنية والثقافية والتاريخية والدينية القادرة على تفسير الواقع المصري والعربي ومواجهة أزماته ومشكلاته .

ولا شك أن السبب في هذا الأمر برجع إلى أن الكثير من أساتذة وباحثي علم الاجتماع في مصر على غير علم بهذه المنطلقات؛ لأنهم لم يدرسوها في الجامعة أو ما بعد الجامعة .

*** وإذاكان علم الاجتماع قد دخل جامعة الأزهر الشريف خلال فترة الستينات فإن هناك محاولات جادة لكنها جزئية لمواجهة مشكلة التبعية والتغريب، ولربط بحوث هذا العلم بالوطن ومواجهة مشكلاتهومحاولة انطلاقها من موروثاتنا الثقافية والدينية والتاريخية.**

ليس معنى كلامنا هذا خلو الدراسات السوسيولوجية في مصر والعالم العربي من جهود جادة تنطلق من أطرنا التاريخية والوطنية والثقافية، ومن دراسات استرشدت بالأطر التصورية المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، والموروث الثقافي الجيد، لكنها جهود فردية لم تصل إلى أن تكون مدرسة وطنية أو إسلامية أو عربية لعلم الاجتماع .

وهذا يحتاج إلى دراسة طلاب علم الاجتماع لتاريخ وأمجاد بلدهم منذ العهد القديم ومرورا بالوسيط ثم الحديث، ودراستهم للثقافة الإسلامية بجوانبها العقائدية التشريعية والحضارية والأخلاقية والقيمية، وما يهمنا هنا هو دراسة الإسلام في قراءاته الاجتماعية وثوابته ومتغيراته ودراسة علم الاجتماعفي إطارالجوانب للثقافة الإسلامية، وكيف يمكن لهذه

الجوانبأن تكون منطلقات لدراسة الواقع ومواجهة أزماته ومشكلاته كما تكون موجها لنتائج وتطبيقات هذا العلم فيفهم وتحليل وتشخيص ومواجهة أزمات المجتمع، وفي كل محاولات التنمية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

* سوسيولوجية المجتمع المصري والعربي وحاجته إلى أطر نظريه خاصة :

يدرك المتتبع للتاريخ صدق علماء المصريات الأجانب وعلى رأسهم(جيمس بريستد)وهو من أبرز هؤلاء العلماء في تأكيده على أن ضمير العالم كانأول ظهوه في مصر القديمة، فقد بدأت أول حضارة إنسانية تحكمها قيم ومبادئ ومعايير وقواعد عامة يلتزم بها الجميع ليعيشوا في أمن وسلام، بدأت على ضفاف وادي النيل ودلتاه، ففي هذا المكان تأسست أول جماعة بشرية منظمة ومترابطة تحكمها قواعد عامة وقيم ومعايير متفق عليها من كل من يعيش على أرضها .

وقد حدث هذا قبل أن تتحول مصر إلى دولة في تاريخ الإنسانية، وقد بدأت تتشكل الشخصية المصرية والهوية الوطنية لدى المصريين من عصر ما قبل الأسرات و ما قبل التاريخ المكتوب على فترات تاريخية متعاقبة، وقد بدأ هذا قبل ميلاد المسيح بما يقرب من (١٢) ألف سنة تقريبا، في عصور حضارات مرمده، والفيوم، والبداري، وحلوان وغيرها من مراكز بزوغ الحضارة المصرية التي كانت أول حضارة عرفتها البشرية . وقد بلغت الحضارة المصرية (علوم وفنون وآداب وعمارة وثقافة وطب ونظم حكم وأعراف وقيم ... إلخ) درجة عالية متميزة في عصر الأسرات الأولي، او عصر البنائين الذين نظموا علاقات وسلوك الناس بشكل مبدع، وخلفوا لنا الأهرامات، والفلسفات والحكمة وقواعد السلوك والإيمان بالإله الواحد والبعث والحساب بعد الموت، كما أبدعوا لنا منظومة من القيم العليا التي ربما كانت آثار نبوات سابقة مثل : عدم الاساءة للناس أو الحيوأن أو النبات او المياه او نهر النيل، وظهر عندهم أول مفهوم حول التوحيد

أو نظريات إلخلق التي حاولت تفسير نشأة العالم، والعلاقة بين البشر وبين الإله أو الإلهة حسب ما خلفوه لنا من أساطيروإلى جانب ذلك حسن إلخلقوالعلاقات الطيبة بين الناس..إلخ.

وقد كانت أسطورةإلخلق التي يتصدرها (رع) كإله خالق واحد من أبرز أساطيرإلخلق التي توصلوا إلىها . وهذه الأسطورة لم تجد تفسيرا للكيفية التي جاء بها الإله، فقالت إنالإله خلق نفسه . (وهذه الفكرة فيها أوجه شبه بمفهوم الفلاسفه حول واجب الوجود فقد ذهب المصريون القدامي إلىأنالإله يخرج فجأة من الرمال التي يدفن فيها نفسه رمزا لهذا إلخلق الاتي، وما يزال هذا السؤال مطروحا في كل الفلسفات المادية والمثإلىة، وفي عصر الدولة الوسطى وفي مصر القديمة، وكان مركزها اهانسيا .

لقد أبدعت مصر والمصريون وخلفت تراثا هائلا من البناء والتعايش السلمي الحضاري وأنجاز مشروعات زراعية كبرى في عصور امنحات الأول والثاني والثالث وسنوسرت وغيرهم من الحكام . . وفي عصر الدولة الحديثة في مصر القديمة تم تحرير مصر من الهكسوس الغزاة، وتم اقامة امبراطورية مصرية كبرى بهدف حماية مصر من المخاطر والغزو الأجنبي، وليس بهدف النهب والسلب والاستعمار، لأن مصر الثرية المتحضرة لم تكن في هذا الوقت ولا في أي وقت في حاجة إلى ذلك، أو حتى تفكر في ذلك . وقد وصلت تلك الدولة إلى قمة مجدها في عهد (من خبرع) المعروف ب(تحتمس الثالث) . وشهد هذا العصر إنجازات حضارية رائعة من علوم وفنون وحكمة وآداب وقيم ومعابد ومسلات وقبور مثل قبور

وادي الملوك ووادي الملكات[٨]. وقد شهدت مصر نمطا راقيا من أنماطالإدارة والحكم والتعامل مع الأقإلم التي كانت تحت حكم الدولة المصرية .

وحتى في عصر الاضمحلال سادت مصر حالة غير مسبوقة من التعايش السلمي والتسامح العرقي، حيث وصلت أسرة نوبية إلى حكم مصر، كما وصلت أيضا أسرة أمازيغية لحكم مصر، ولم يعد ذلك حكما أجنبيا، لأن النوبة والمناطق الأمازيغية كانت جزءا لا يتجزأ من التراب المصري والشعب المصري . ومنذ هذا التاريخ القديم استمر الشعب المصري موحدا دون أي تمييز عرقي أو لوني أو ديني حتى إلىوم وإلىإن يشاء الله.

وبعد مرور مصر بالعهد اليوناني والروماني جاء العصر القبطي وناضل المصريون جميعا لأجل الحفاظ على وحدتهم الوطنية وهويتهم المصرية المتميزة، فكانت الكنيسة المصرية الأورثوذوكسية لها عظمتها وشموخها وتميزها عن كنائس أوروبا الغازية . وكانت الكنيسة المصرية في مركز متساو مع الكنيسة الكاثوليكية في روما رأسا برأس.

وبعد الفتح الإسلامي لمصر في عهد سيدنا عمر بن إلخطاب –رضي الله عنه– على يد عمرو بن العاص رضي الله عنه، أنقذالمسلمون كبار قساوسة مصر وعلى رأسهم البابا (بنيامين) الذي كان في أحد أديرة النصارى في مصر مع كبار القساوسة المصريين هربا من ظلم وتجبر

---

[٨] راجع دراسة جيدة لأحمد السيد النجار بعنوان : بوابة الحضارة ، نقش بالروح على جدران الهوية ، الأهرام ٢٤ اغسطس ٢٠١٥.

الرومان . وأعاد المسلمون إلى اقباط مصر كنائسهم وممتلكاتهم وحرياتهم في ممارسة دينهم وحياتهم بحرية كامة، ولم يجبر أي إنسان على تغيير دينه، بدليل استمرا مصر عدة مئات من السنوات الغالبية فيها للنصارى.

وقصة عمر بن إلخطاب مع وإلى مصر عمرو بن العاص وابنه الذي ضرب قبطيا وقال له أنا ابن الأكرمين مشهورة ومسجلة . ومع إنشاء الفاطميين للجامع الأزهر وتحوله من التوجه الشيعي الإسماعيلي الذي رفضه المصريون واتجهوا إلى تبني منهج أهل السنة والجماعة في عصر صلاح الدين الأيوبي، وأصبحت مصر هي قلعة علوم اللغة العربية والشريعة الإسلامية وأقدم جامعة شرعية في العالم، أنطلق منها العلماء يعلمون العلوم الشرعية وغير الشرعية لكل دول العالم، والأهم من هذا أن هذه العلوم الشرعية اتسمت بالموضوعية والتوازن والوسطية والاعتدال، والتأكيد على التوثيق الدقيق وعلى ترك الحرية لكل الناس أن يختاروا دينهم وطرق معيشتهم بحرية، مع احترام حقوق كل الناس دون تمييز على أي أساس . فالإنسان مطلق إنسان مكرم من الله، وهو بنيان الله يجب احترامه واحترام إرادته وحريته طالما لم يرتكب انحرافا يمس أمن الدولة أو أمن زملائه المواطنين أو اقترف فاحشة .

وكانت كل علوم الإسلام تؤكد على قيمة الوطن والمواطنة وحق الشعب في اختيار حكامه بحرية كاملة .

وفي عصر محمد علي تأسست مصر الحديثة القوية المتكاملة الموحدة المبدعة في كل مجالات الحياة والتعليم والصحة والإدارة والجيش والصناعة والزراعة، وأسس محمد علي لمصر حضارة حديثة مستفيدا من

علوم الغرب، وتم اعادة بعث العسكرية المصرية على يد ابنه ابراهيم باشا وتأسس أول جيش مصري مهني في العصر الحديث.

وقد كان أداء الجيش المصري رائعا حيث أذهل كل العالم وأنتصر على جيش السلطانالعثماني، ودفع بالأسطول العثمانيإلى الاستسلام في الاسكندرية تاركا كل مكوناته للجيش والبحرية المصرية .

وقد كانت حضارة مصر التي أعيد بناؤها في عصر محمد علي مؤكدة على وسطية الإسلام وحقوق الناس وحرياتهم، ومستفيدة من كل الحضارات السابقة والمعاصرة .

والواقع أن مصر الأزهر، ومصر بعد الفتح الإسلامي أصبحت قائدة الفكر الإسلامي المعتدل الوسطي المستنير، وأصبحت الثقافة الإسلاميةالمؤكدة على حريات وحقوق

الجميع بدون تمييز، هي ثقافة كل المصريين مسلمين ومسيحيين، من ذلك مقولة مكرم عبيد باشا المشهورة (أنا مسيحي الديانة، مسلم الثقافة)، وهذا موقف كل الناس في مصر، فالثقافة الإسلامية تؤكد على ضرورة تحقيق العدل والمساواة والتعايش السلمي والأمن والحياة الكريمة لكل الناس، فالجميع الحق في مستوي لائق من المعيشة والحرية والكرامة، كما أكدت الثقافة الإسلامية على قيم الحق والخير والجمال والمواطنة لكل أبناء المجتمع دون تمييز .

هذه هي الثقافة الإسلامية المتغلغلة في نفوس كل المصريين مسلمين وغير مسلمين، جعلت من علوم اجتماع الغرب سواء على مستوى

النظريات أو الأيديولوجيات أو الأهداف احتياجاإلى تعديل حتى تتوافق مع ثقافة مصر والعرب .

وقد حتم ذلك على علم الاجتماع في مصر أن ينطلق من عدة منطلقات حتى يحقق أهدافه في خدمة مصر والمصريين .

وأهم هذه المنطلقات التاريخ ،والموروث الثقافي والإسلام عقيدةً وشريعةً وأخلاقاً وحضارة، إلىجانب الوطنية المصرية وما يحققه المصريون ذوي الثقافة الإسلامية في تحقيق أهدافهم من أجل الحفاظ على وطنهم والتنمية وتحسين نوعية الحياة لأبناء مصر، فإعلاء قيمة هذا الوطن هي أخلاق الإسلام التي هي أخلاق الثقافة الإسلامية بقيمها ومبادئها وحفظها لحقوق وكرامة وحريات كل من يعيش على أرض مصر، هذه الثقافة متأصلة في نفوس كل المصريين وفي سيكولوجية المجتمع المصري والدولة المصرية . فمصر هي الدولة أو المجتمع الوحيد الذي ذكر في القرآن الكريم خمس مرات صراحة، وحوإلى (٣٠) مرة ضمناً، هذا المجتمع الذى أكد القرآن الكريم علي أمنه لكل الناس، قال تعالى: (ادخلوا مصر أن شاء الله ءامنين) (يوسف ٩٩)، وهو المجتمع الذى أطلق عليه القرآن الكريم خزائنالأرض، قال تعالى : (إجعلني على خزائن الأرض) (يوسف ٥٥) .

فمصر هى البلد التى أقسم الله بها في كتابه العزيز، قال تعإلى : (والتين والزيتون * وطور سينين وهذا البلد الأمين) (التين ١) . مصر هي البلد الوحيد التي تجلي الله فيه على أحد مخلوقاته، يقول تعإلى : (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا) (الاعراف ١٢٣) .

مصر هي التي وصف رسولنا عليه الصلاة والسلام جندها بأنهم خير أجناد الأرض، ووصف شعبها بأنه في رباط إلى يوم القيامة . هذا وغيره أنعكس بشكل واضح على قيم ومبادئ وشخصية كل منيعيش على أرض مصر على اختلاف درجة تدينهم سواء من المسلمين أو غير المسلمين لأنهم يعيشون جميعا في إطار ثقافة الإسلام، ولأنهم جميعا مواطنون لهم نفس الحقوق والحريات وعليهم نفس الواجبات، صحيح أن الحقب التاريخية اختلفت في مصر منذ الفتح الإسلامي وحتى إلدوم، واختلفت نظم الحكم وتعرضت مصر لأنواع متعددة من الغزو والاستعمار والصعود والهبوط، ولكن ظلت مصر حاضنة لثقافتها الإسلامية، وظل أزهرها الشريف معقلا للعلماء والتعليم والبحث العلمي والدعوة إلى صحيح الدين الإسلامي الوسطي، وناشراً لهذا الدين داخل مصر وداخل كل دول العالم الإسلامي مناديا بالعدل والمواطنة والمساواة .

هذه الخصوصية لمصر كدولة وكمجتمع وكأسر وكجماعات وكإنسان لابد وأن تؤخذ في الإعتبار عند دراسة الواقع الاجتماعي، وأثناء رسم السياسات، وخطط وبرامج التنمية والتغيير ومواجهة الأزمات والمشكلات المختلفة . كل هذا يعني حاجتنا في علم الاجتماع إلى أطر نظرية نابعة من التاريخ والدين والموروث الثقافي المصري والعربي والإسلامي . [٩]

---

[٩] المعاصر ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٧٥ م راج كتاباتي الايديولوجيا وأزمة علم الاجتماع

نموذج من الأطر التصورية المناسبة لتوجيه البحوث الاجتماعية :

قد يرى العض أن الدين ثوابت، والعلم يتصل بالمتغيرات والنظريات لتى تتغير وفقا لتغير المنهج العلمي، كما يؤكد (كارل بوبر) أبرز علماء المناهج في جامعة لندن في كتابه المهم (عقم المذهب التاريخي)[١٠]، وكتابه (المجتمع المفتوح وأعداؤه)، يقول بوبر : إن المنهج العلمي ليس هو منهج التأييد، ولكنه في الأساس منهج التكذيب . فيظل القانون العلمي ثابتا معمولا به إلىأن يتضح أن هناك حالة واحده تكذبه فيسقط ويحل محله قأنون جديد . وهكذا تعاقبت قوانين جالليو، ثم نيوتن ثم اينشتين وما بعده من علماء، وهذا يعني في نظرهم ضرورة الفصل بين الدين والعلم.

هذا القول ينطبق على الدين الإسلامي الذي يجعل من الإشتغال بالعلم والبحث في كل الميادين الشرعية والكونية والتاريخية والاجتماعية والإنسانية فريضةً دينية، ويجعل إعمال العقل والوصول إلى سنن الله في الكون والمجتمع والتاريخ والإنسان فريضة دينية . والهدف من هذا انتفاع الإنسان بالمسخرات الكونية وتحسين نوعية حياة الناس، وزيادة الطاقة الإيمانية عندهم وتحقيق أقصى قدر من عمارة الأرض أو التنمية الشاملة بالمصطلح المعاصر.

---

[١٠]راجع كتاب : كارل بوبر ، ترجمه عبد الحميد صبره بعنوان ، عقم المذهب التاريخي، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٦٢ م .

نموذج إرساء وتطبيق حضارة البناء والعمارة :

والإسلام ثوابته خمسة، وهي قليلة جدا ويفتح الباب واسعا إلى غير حد أمام الاجتهاد في المتغيرات، وهي متغيرة ومتجددة بضوابط محددة تحول دون الانحراف أو التصادم . والثوابت إلخمسة في الإسلام هي مايلي:

١) الثوابت العقائدية (التوحيد وأركانالإيمان الستة) .

٢) الأحكام الشرعية قطعية الثبوت والدلالة .

٣) المقاصد الشرعية وهي التي تتضمن الحقوق والحريات والكرامة والعدل لكل الناس دون تمييز في العبادات المفروضة على أي أساس ديني أو عرقي أو طبقى أو فئوي.

منظومة القيم المطلقة ومكارم الأخلاق :

أنالإسلام يجعل الاجتهاد من المتخصصين في كل عصر فريضة لتأسيس حضارة عجيبة، أرى أن يطلق عليها حضارة العمارة والبناء أو حضارة العدل والحق والإخاء .

وبعيدا تماما عن التعصب وعن العنصرية وعن الإنغلاق، فإن الحضارة الإسلاميةأول حضارة تسترشد بوحي السماء، وإنني إذ أطلق عليها حضارة البناءوالعمارة أستند في ذلك إلى قوله تعإلى في سورة هود (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها) (هود ٦١) . فالإسلام يركز على كل جوانب البناء والعمارة والتنمية والتقدم الشامل للإنسان والمجتمع في إطار ثوابت العدل والحرية وحقوق الإنسان . هذه الثوابت تاريخ ميلادها

الحقيقي رسالة محمد ﷺ، وليست المواثيق الدولية ولا الثورات الأوروبية، كما يشاع زورا وبهتأناً .[١١]

[١١]راجع دراستنا بعنوان العطاء الإسلامي للحضارة الإنسانية ،٩ ٢٠٠ م سلسلة فكر المواجهة ، إصدارات رابطة الجامعات الإسلامية.

وأهم جوانب العمارة في الحضارة الإسلامية مايلي :

١) عمارة الإنسان : بالتربية وغرس العقيدة والقيم ومكارم الأخلاق.

٢) عمارة الروح : بربطها بخالقها ومراقبته في السر والعلن .

٣) عمارة النفس: ويعني تزكية النفس وخلوها من كل أمراض النفوس كالحقد والحسد والشرور والغيبة والنميمة والأنأنية ..إلخ.

٤) عمارة العقل : بالمعارف والمعلومات والتعليم وتنمية التفكير المنهجي والابداع العلمي في كل المجالات الدينية ولدنيوية، وتنمية التفكير العلمي الناقد البناء، وصولا إلى فهم القوانين التي تحكم الكون والمجتمع والتاريخ والإنسان .

٥) عمارة الجسد : بالصحة والنظافة إلخارجية والداخلية والطهارة والغذاء والاعتدال وتجنب كل ما نهى الله عنه من خمور ومخدرات واسراف وخبائث .

٦) عمارة الأسرة : ويعني بناء الأسرة الشرعية من خلال الأحكام والشروط الشرعية لإشباع حاجات الإنسان البيولوجية والفطرية والنفسية والاجتماعية والتربوية ... وهذا ما أطلق عليه القرآن الكريم السكن والمودة والرحمة .

وعمارة المجتمع تكون من خلال منح الناس حق إختيار الحاكم ومراقبته ومحاسبته من خلال تطبيق أحكام الشرع في كل المجالات، وفي مقدمتها الحفاظ على حقوق الناس وحرياتهم وكرامتهم وتوفير فرص العمل المنتج لكل قادر عليه وتوفير حد الكفاية لكل الناس دون تمييز على أي

أساس . هذا إلىجانب توفير حقوق المواطنة لكل من يعيش على أرض المجتمع بشرط عدم الإعتداء أو الإنحراف .

وعمارة المجتمع الدولي تكون من خلال إفشاء السلام وقيم الأمن والتعايش السلمي وعدم الاعتداء، وعدم اللجوء للحرب إلا لرد العدوان ودفع الظلم والفساد والإفساد في الأرض، فلا عدوان إلا على الظالمين واحترام حق كل شعب في تقرير مصيره.

وعمارة الدنيا تكون بتطبيق شرع الله في عدالته ووسطيته، وعمارة الدنيا بالزراعة والصناعة والإنتاج والعلم والتكنولوجيا، والاستمتاع بالطيبات التى أحلها الله والأخذ بسياسات التنمية في كل الميادين بالضوابط التي تحول دون العدوان أو الظلم أو الفساد أو الأنحراف لأي إنسان أو جماعة أو مجتمع .

أما عمارة الآخرة فيقول تعإلى :(الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) (تبارك ٢)، ويقول تعإلى : (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إلىك ولا تبغ الفساد في الأرضأن الله لا يحب المفسدين) (القصص ٧٧)، فالدنيا مزرعة للآخرة .

الدنيا دار ابتلاء واختبار، فكل ما تقوم به من فرائض وتعليم وتكنولوجيا وعمل وعلاقات وأدوار ...إلخ هو في ميزأن الإنسان ايجابا وسلبا حسب النية وحسب نوع العمل وأهدافه ومقاصده . ولهذا كانت آخر آية نزلت في القرآن الكريم هى : (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس بما كسبت) (البقرة) .

فن تكوين المجتمع وبناء الدولة[١٢] :

إذا رجعنا إلى تأسيس الإسلام لأول مجتمع إسلامي وأول دولة إسلامية، أدركنا أنه كيف أسس الإسلام على مجموعه من الاسس والقواعد السامية التي لم تصل المجتمعات إلى مثلها إلىالىوم، والتى تفاخر الدول الغربية أنها توصلت إلى بعضها، معتبرة إياها أقصى درجات التنمية السياسية، وسوف نبرز فيماياليأبرز هذه المبادئ التى أرساها الإسلام لبناء المجتمع :

أولا : أسس الرسول ﷺدولة المدينة المنورة على التعاقد مع أهلها، فقد عقد الرسول عليه الصلاة والسلام عقدا مع ممثلي المدينة المنورة في بيعة العقبة الأولى والثانية، وقد شارك النساء في هذا العقد، حيث كان وفد المدينة في بيعتي العقبة الثانية (٧٣) رجلا وامرأتأن[١٣]، وعند ابرام العقد طلب الرسول عليه الصلاة والسلام من الوفد اختيار إثنى عشر نقيبا حتى يمكن ابرام الاتفاق مع النبيﷺ، ويعد هذا أولأنتخاب في التاريخ .

وبعد ابرام العقد مع الوفد المصغر (نواب الوفد الأكبر)عرض العقد على الجميع فوافقوا، وهذا يعني أنه أسس المجتمع والدولة على عقد اجماعي واقعي، هذا العقد يختلف جذريا عن العقد الوهمي الذي تحدث عنه جون لوك، وجان جاك ورسو، والذي يعد الأساس الأوللليبرإلىة أو

---

[١٢]راجع دراستى بعنوان: قراءة اجتماعية لصحيفة المدينة ألقيت في مؤتمر فن بناء الدولة في الإسلام ، جامعة الأمير عبد االقادر بالجزائر

[١٣]راجع المباركفوري : الرحيق المختوم ،، دار التدمرية ، السعودية ، ٢٠٠٠

التحررية الأوروبية، كما تختلف عن العقد الاجتماعي عند هوبز الذي أصل للديكتاتورية .

ثانيا : استقبل أهل المدينة النبي ﷺ بالترحاب والتسابق على استضافته والأناشيد المعروفة، فهو لم يذهب غازيا أو فاتحا .. وإنما جاء نبيا ورئيسا بناء على اختيار غالبية أهل المدينة (باستثناء إلهود بالطبع).

ثالثا : أول ما دعا إلىه في المدينة السلام والأمن، فكانأول ما دعا له، كما روى ابن سلام، قوله عليه الصلاة والسلام (أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا جنة ربكم بسلام) . فلا وجود لمجتمع مستقر إلا من خلال سيادة الأمن والسلام، ولا دعوة إلى الله بدون أمن وسلام، ولا استقرار وتنمية بدون أمن وسلام .

رابعا : تحقيق التوافق الوطني، فلا وجود لمجتمع في ظل الصراعات والحروب وتصيد الأخطاء والإختلاف والتنافر، لذا قام النبي ﷺ بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار لبناء المجتمع الموحد المتكاتف المتكافل بين الأنصار والأنصار وبين المسلمين وغير المسلمين.

خامسا : بناء المؤسسات، فلا دولة ولا مجتمع مستقر الا بسيادة القانونوبناء مؤسسات يشارك فيها المواطنون، ولهذبدأ ببناء مسجد قباء، الذي أصبح مكانا للصلاة ولإدارة الدولة سياسيا واقتصاديا، وعقد المعاهدات وتخطيط الحروب الدفاعية لرد العدوان .

سادسا :إنشاء الدولة على دستور، فقد أبرم عقدا مع يهود المدينة وهو أول وثيقة دستورية في التاريخ، وكان من بنوده أن المسلمين

والمؤمنين وإلىهود ومن تبعهم ولحق بهم أمة من دون الناس . فالأمةالإسلامية الأولى التي أسسها النبي ﷺ قامت على مبدأ التعددية، تشمل المسلمين وإلىهود معا، وحتى عندما سئل عن المشركين في المدينة قال عليه الصلاة والسلام: (سنوا بهم سنة أهل الكتاب غير أنه لا تؤكل ذبائحهم، ولا تنكح نساؤهم) .

نموذج الدولة المدنية والديمقراطية المنضبطة بالوحي (الشورى) :

أسس النبي ﷺأول دولة في الإسلام على أسس تعاقدية دستورية رضائية، فمصدر السلطة داخل المجتمع هم أبناء المجتمع وليست سلطة ثيولوجية .

فالله لا يختار الحاكم وهو ما ساد فى أوروبا في القرون الوسطي من اعتقادات التفويض الإلهي المباشر وغير المباشر . فقد ظهرت في أوروبا أفكار تؤكد أن الله يختار الحاكم بنفسه بشكل مباشر . بجانب أفكار تؤكد أن الله يفوض الكنيسه في اختيار حكام الشعوب، وهذا ما إذاق أوروبا مختلف ألوأن الفساد والاستبداد والعبودية والظلم على مدى ما يقرب من ألف سنة من القرن إلخامس الهجري وحتى عصر النهضة . هذا أمر رفضه الإسلام رفضا باتا . فالجماهير أو أبناء المجتمع وحدهم هم من يختارون حاكمهم، وهم من يحاسبونه ويوجهونه بل ويعزلونه إذا اقتضى الأمر . والحاكم خاضع لإرادة الناس الذين اختاره، بشرط عدم إلخروج عن الضوابط والأحكام والقيم ومكارم الأخلاق، أو الثوابت إلخمسة السابق ذكرها.

هذه الضوابط ليست طريقا إلى تقييد الحريات أو الاعتداء على الحقوق، فتاريخ الميلاد الحقيقي لحرية الناس وحقوقهم وكرامتهم هي رسالة محمد ﷺ. والمقصود بضوابط منع الفساد والإفساد والاستبداد والظلم والاعتداء والتفكك والصراع والتنافر، وغياب الأمنالاجتماعي .

وقد سبق أن رأينا أن الرسول ﷺ، أسس دولة المدينة، في المدينة في بيعة العقبة الأولى والثانية، وأهل المدينة هم من ختاروه ﷺرئيسا عليهم، وبعد الهجرة أقام الحكم على الشورى وسيادة القانون ودولة المؤسسات والتوافق الوطني، ونشر الأمن والسلام واحترام حقوق وحريات المواطنين مسلمين وغير مسلمين، وحق المواطنين في مراجعه الحاكم فيما لم يرد فيه نص.

هذا وغيره أهم مرتكزات الحكم المدني الذي تم تأسيسأول دولة في الإسلام على أساسه، وهذا يعني أنالإسلام لا يقر ولا يقبل، بل ويتصادم كليةً مع الحكم الديني الثيولوجي بكل أشكالهويؤكد أن مصدر السلطة السياسية في أي مجتمع هو الشعب، بإرادته الحرة.

إن السلطة السياسية قضية دنيوية متروك أمرها للمواطنين بالضوابط المأنعة من التسلط والفساد والانحراف . أما ما يفاخر به الغرب من أنه الذى أرسى فكرة الديمقراطية والتي تعني حكم الشعب بالشعب ومن أجل الشعب، وأرسى مسألة الأنتخابات والأحزاب وصناديق الأنتخاب، فالتاريخ والنصوص والسيرة النبوية تؤكد أنأول تطبيق لهذه الديمقراطية المنضبطة بمبادئ وقيم الوحي، أنما جاء مع أول تأسيس لدولة إسلامية، فعقد المدينة أعطى غير المسلمين كل حقوقهم وحرياتهم في ممارسة شعائرهم، والتنقل والمشاركة في ادارة الدولة (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) . وسبق أنأوضحنا أن الرسول ﷺ، هو الذي يتلقى الوحي من الله، وهو ثاني مصادر التشريع (الكتاب والسنة)، كان يستشير أصحابه ويأخذ بأرائهم ويغير قراراته نزولا على حكمهم فيما لم يرد فيه نص، وأعطينا مثالا مما حدث في أخطر ثلاث حروب أو غزوات كبرى في دول المدينة في حياته

ﷺ،وهى غزوات بدر وأحد وإلخندق أما بعد وفاة النبي ﷺ فقد تجلت الدول المدنية واختيار المواطنين للرئيس أو إلخليفة في أرقى صوره، ففي اجتماع السقيفة اجتمع أهلالحل والعقد مندوبوا الناس وممثلوهم من الأنصار والمهاجرين، ودارت حوارات وأديرت الاختلافات بأدب وقيم وعليا، وبعد اختيار أبو بكر للخلافة، كان عليه الجلوس في المسجد ليعرف رأي الناس فيما يطلق عليه البيعة وقد تحققت . وهذا يعني بلغة عصرنا أن الأنتخاب أجري على مرحلتين، كان في الأولى أهل الحل والعقد وهم قادة الرأي والفكر باختيار الحاكم، والمرحلة لثانية أخد رأي الجماهير في المسجد، وقد كان أبو بكر يطبق منهج الشورى لأنه منهج ملزم في ديننا، ليس فقط في السياسة وإنما داخل كل المؤسسات من الأسرةإلى الدولة ((١٤)).

والديمقراطية التى أرساها الإسلام المنضبطة بالوحي، تحمى آراء وإجماع الناس على الفساد والانحراف أو الاستبداد او الاعتداء . ويكفي أن نراجع الديمقراطيات الغربية لندرك أنهم قننوا شرب إلخمور، والعلاقات الجنسية خارج إطار الزواج، ليس هذا فحسب فقد قننوا الشذوذ الجنسي أو المثلية الجنسية، وباركتها بعض دور العبادة هناك، ليس هذا فقط بل إن بعض الدول قننت شراء وتعاطي المخدرات وقد شاهدت هذا بنفسي في هولندا، خلال وجودي بها لحضور مؤتمر النقد في الجامعة الحرة في أمستردام.

---

(١٤)ابحاثي في عدة مؤتمرات حول الشورى وكان من بينها مؤتمر الدراسات الانسانية بالتعاون مع ليبيا بعنوان : بين الشورى والديمقراطية ١٩٩٧ .

وإلجانب هذا النقد للديمقراطية الغربية غير المنضبطة بثوابت عقائدية وقيمية وأخلاقية، فإن هناك من باحثي القرن مثل (بيتر مير) وهو باحث ايرلندى في العلوم السياسية يؤكد في دراسة مهمة له أن الديمقراطية في العالم العربي في أفول، وذلك في كتاب له بعنوان (الحكم في فرغ : أفول الديمقراطية الغربية)[١٥]، وهو يقول أنه لم يعد للسياسة أو الأحزاب سواء أولئك الذين يقدر فيهم الناس أم لا، أهميتهم السابقة في حياة المجتمع . فقد أنصرف اهتمام الناس عن السياسة واتجاه أغلب الاهتمام للإقتصاد، وتراجع دور الدولة، لتنامي قوة تأثير المؤسسات الدولية، كالأتحاد الأوروبي، وصندوق النقد الدولي، ومنظمة التجارة العالمية .... إلخ . وهذا يعني تضاؤل أهمية قرارات الدولة، وهو يدلل على هذا بتضاؤلأعداد ونسب من يشاركون في الأنتخابات العامة من بين من لهم حق التصويت خلال ربع القرن الأخير . وقد أورد احصاءات تدل على صحة هذا الرأي في انجلترا وفرنسا وايطإليا والنرويج والبرتغال وأسبانيا وسويسرا والنمسا وفنلندا، هذا إلجانب تغيير اتجاه ولاء الناخبين في التصويت من حزب لآخر .

كما لاحظ الباحث المذكور أنأعداد المنضمين الأحزاب قل كثيرا خلال العشرين سنة الأخيرة من القرن العشرين . وهذا ما أكده باحث بريطانية

---

[١٥] راجع كتابه بعنوان **ruling in void : the hollowing of western democracy the extreme center.**

وراجع أيضا دراسة للدكتور : جلال أمين بعنوان : هل الديمقراطية في أفول ، الأهرام ٢٤اغسطس . ٢٠١٥ .

من أصل باكستاني هو (طارق على) أشرف على أهممجلة يسارية في بريطانيةا وهى مجلة (إلسار الجديد)، وأوضح في كتاب له بعنوان (الوسط المتطرف) أوضح فيه تراجع وضعف الأحزاب الاشتراكية إلسارية المدافعة عن حقوق الفقراء والعاطلين، وتوجه أغلبالأحزابإلى خدمة أصحاب الأعمال، فأصحاب هذه الأحزاب اتجهوا إلى نوع من الوسط لكنه وسط متطرف، لأنه أكثر ميلا إلى دعم الرأسمإلىين والتخلى عن خدمة الفقراء .

ويفند طارق على ما أطلق عليه نمو التيار الثالث الذي يمثل الوسط بين إلىمين وإلسار، فكل الأحزاب أصبحت منحازة للرأسمإلىة المتوحشة .

نموذج تحرير المرأة :

لست في حاجة إلى القول بأن المرأة في أغلب المجتمعات والحضارات السابقة على الإسلام، لم تكن تتعدى سلعة تباع وتشترى ويتم توريثها، ولم تعد كائنا بشريا وإنما كانت تعد أداة لأمرين لا ثالث لهما :

الأول : استمتاع الرجل، والثاني : مصنع لأنجاب الأبناء ، وليس لها أية حقوق أو حريات أو كرامة .

وفي كثير من المجتمعات كانت المرأة ينظر إليها على أنها شيطان رجيم لأنها هي سبب إخراج آدم عليه السلام من الجنة، سبب شقاء الإنسان لنزوله إلىالأرض . وحتى عهد قريب جدا كانالقانون في بريطانية يبيح للرجل أن يبيع زوجته في ميدان عام في لندن [١٦]، وإلى عهد أقرب لا يزيد عن مائة عام، لم يكن للمرأة في فرنسا حق توقيع شيكات بنكية او أن تتصرف في ممتلكاتها إلا بموافقة قريب لها من الذكور . وحتى عهد قريب جدا؛ بل إلى الأن في بعض المجتمعات الغربية المرأة تعمل عدد ساعات الرجل وتحصل على نصف أجره أو ما يقرب من ذلك، وإلى الآن توظف المرأة في الغرب توظيفات بعيدة جدا عن الاخلاق وتتصادم مع تعإليم كل الرسالات السماوية، ومنها استخدامها رسميا في الدعارة وبيع جسدها مقابل رسوم محددة، من خلال مؤسسات مسجلة، ومنها استخدام جسد المرأة العاري في ترويج السلع في اعلأنات غير أخلاقية، ومنها حرص رجال الاعمال على أن يكون في مكتبهم أو العلاقات العامة في

---

[١٦]راجع د. ابراهيم أبو محمد : المرأة بين حضارتين الإسلامية والغربية ، إصدار المجلس الأعلي للشؤن الإسلامية ، العدد ١٢٩ ، ٢٠٠٥

شركتهم بنات جميلات وسكرتيرات لجذب الزبائن وابرام العقود وترويج السلع، وغير ذلك كثير جدا .

وبالرجوع إلىالإسلام نجد أنالقرآن الكريم يؤكد لأول مرة أن المرأة إنسان كامل الأهلية، وأنها هي والرجل معا خلقا من نفس واحدة، قال تعالى في أول سورة النساء (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساءا ... الاية) (النساء ١) . وأكد القرآن الكريم أن للمرأة نفس حقوق وحريات وكرامة وواجبات الرجل، قال تعالى: (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة) (البقرة ٢٢٨) . هذه الدرجه هي درجه القوامة والهدف منها حماية ورعاية المرأة، والعناية بها والأنفاق عليها، فالمرأة في عهد الرسول ﷺمارست حقوقها السياسية، فقد شاركت في بيعة العقبة الثانية، وشاركت في بيعة الرسول ﷺ، واصبح لها ذمة مإلىة مستقرة، لها حقوق التعليم والعمل وتولي مختلف وظائف الدولة، عدا الولاية العامة، وهذه الاخيرة فيها خلاف بين العلماء . ولن نستطرد في هذه القضية يكفي الاحالة إلى مصادر عديدة . [١٧]

ولن نستطرد أكثر في عرض النماذج الإسلامية التي تصلح كأطر تصورية ينطلق منها الباحث في علم الاجتماع، فهي كثيرة جدا ومتعددة، وفي مجموعها تمثل إطاراً شاملا لتوجيه الدراسات السوسيولوجية، ويصلح لتفسير الواقع، كما يصلح لرسم خطط المواجهة والتنمية والقضاء على

---

[١٧]علاء أبو بكر : إنسانية المرأة : بين الإسلام والأديان الأخرى ، مركز التنوير الإسلامي ، ٢٠٠٥ م

الأزمات، ونكتفي فيمايلي بوصف مسميات فقط لنماذج فريدة يمكن إضافتها إلى النماذج السابقة :

ا) نموذج العدل الإسلامي :

العدل فى الإسلام يختلف جذريا عن العدل فى النظم الاشتراكية أو الليبرالية او المختلطة. فالعدل شامل لكل المواطنين دون تمييز، والعدل واحد وثابت مع الأصدقاء ومع الأعداء، ومع الوالدين، ومع كل الناس، قال تعإلى في سورة النساء (يا أيها الذين ءامنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين أن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ... (الاية ١٣٥)، وقال تعإلى في سورة المائدة : (يا أيها الذين ءامنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) (المائدة ٨)، وقال تعإلى :(أن الله يأمر بالعدل والاحسأن وإيتاء ذي القربى) (النحل ٩٠)

ب) نموذج التعليم والعلم وإعمال العقل :

التعليم وطلب العلم، والإبداع الفكري، والتفكير وإعمال العقل والإجتهاد في ديننا الإسلامي فرائض دينية، وأول ايه نزلت على النبي ﷺ(اقرأ) ، وقد فهم أهل القرون الأولى للاسلام ايات القرآن الكريم الداعية للعلم، فأنطلقوا للبحث لفهم سنن الله في الكون، وفي التاريخ والمجتمع والإنسان . والأهم هو ابداع العقل المسلم للمنهج العلمي التجريبي، فهذا المنهج لم يبدعه جون ستيوارت مل ، او فرأنسيس بيكون كما يدعي علماء مناهج الغرب، وأنما ابدعه علماء اصول الفقه، والعلماء المسلمون الذين كانت

لهم اسهامات بالغة الأهمية في مجالات العلوم الطبيعية والاجتماعية والشرعية .

هذه النماذج وغيرها كثير تصلح بدون شك أن تشكل إطارا فكريا أو نظريا او تصوريا ينطلق منه الباحثون في علم الاجتماع . وليس معني هذا على الإطلاق تجأهل نظريات ومدارس والدراسات الميدانية لعلم اجتماع الشرق والغرب، أو قطع الصلة بالمناهج والأدوات والتقدم الهائل الذي حدث في الغرب والشرق في مجالات الاحصاء وغيرها من علوم مساعدة . فلا شك أن هناك نظريات ومناهج وتطبيقات غربية أو شرقية لها أهميتها القصوى لعلم الاجتماع المصري او العربي .

فالنظريات كثيرة والمدارس والمناهج متعددة، وفيها بدون شك ما يصلح لتفسير وتحليل واقعنا الاجتماعي . والمقصود مما ذكرناه أن يكون لنا اطرنا التصورية الوطنية النابعة من ديننا وقيمنا وثقافتنا وتاريخنا مع الاستعانة بما يصلح من منتجات الغرب والشرق، والمعير في الاختيار عندنا، ما يصلح لنا في تحليل واقعنا، ومواجهة أزماتنا ومشكلاتنا . وما سوف نتوصل إلـه يجب عرضه على المنتديات الدولي في علم الاجتماع، لتقديم أفكارنا واسهاماتنا الناتجة عن فهم وتفسير وتحليل واقعنا الاجتماعي والثقافي، وعن فهمنا الجيد للفكر الاجتماعي العالمي، وهذا ما يجعل لنا حضورا واسهاما في علم الاجتماع العالمي .

*** مفهوم توطين علم الاجتماع :**

توطين علم الاجتماع بمعناه البسيط أي جعله وطنيا، ويختلف مفهوم توطين علم الاجتماع باختلاف الباحثين وباختلاف مدارس ونظريات هذا العلم، وباختلاف المجتمعات التى ينتمي إلىها الباحثون . وبشكل عام يشير مفهوم توطين علم الاجتماع، . localizationوهي تشي إلىانطلاق الباحث من الواقع التاريخي والواقع الثقافي أوالموروث الثقافي والواقع الديني السائد في مجتمعه الذي نشأ فيه والذي يجري فيه أبحاثه، ويحاول التعرف على نظم وأنساق ومؤسسات هذا المجتمع والعلاقات الاجتماعية داخله وطبيعه التفاعلات التي تتم داخله ونوعية وخصائص بنائه الاجتماعي .

كذلك فإن التوطين يعني دراسة الأهداف التي يسعي الناس ويسعي المجتمع وتسعي الدولة إلى تحقيقها وطبيعة المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والبيئية والثقافية التي تواجه الناس، وتواجه خطط المجتمع والدولة لتحقيق الأهداف العليا لهذا المجتمع، ويسهم العلماء من خلال الفهم العلمي للمشكلات من حيث فهم التاريخ والجدذور والتشخيص والعوامل المتشابكة التى أدت إلىها، أن ترسم إلخطط العلمية للعلاج والمواجهة، وهذا يعني عدم الاكتفاء بالفكر والنظريات والتصورات التشخيصية القادمة من الشرق والغرب، وأنما الأنطلاق من رؤى وتصورات نابعة من الثلاثة أمور المذكورة وهي التاريخ والثقافة والدين أو الأديان والمعتقدات والقيم الموجهه التي يؤمن بها أبناء المجتمع.

وهذا يعني أن التوطين لعلم الاجتماع يتطلب الأنطلاق في البحث من فلسفة المجتمع بجوانبها الثلاثة :

أولا : الجانب الأبستمولوجي: أى من معارف قائمة على فهم واقع المجتمع بعلاقاته ونظمه ومشكلاته وتطلعاته وتاريخه وتطوره وصياغة نظريات ورؤى واستنتاجات قادرة على تحقيق الأهدافالتي يسعى إليها الناس بكل فئاتهم وطبقاتهم ومناطقهم الجغرافية، وعلى تحقيق أهداف المجتمع والدولة، وتحقيق الأهداف والسياسات والخطط والبرامج الإنمائية في المجتمع، هذا يعني البعد عن التبعية المعرفية والنظرية للغرب أو الشرق .

ثانيا : الجانب الأنطولوجي : بمعني الأنطلاق من نوعية العقائد والقيم السائدة في المجتمعات المدروسة، وعدم اقحام قيم أو معتقدات أو تصورات مستوردة، وقد تكون صالحة في مجتمعات اخر، ولكنها لا تصلح لمجتمعنا لاختلاف الأمور الثالثة المذكورة : التاريخ والثقافة والأديان والقيم.

ثالثا : الجانب الأكسيولوجي : وهو المتصل بمنظومة القيم والموروثات الثقافية التي توجه سلوك وعلاقات الناس، كما توجه خطط وبرامج التنمية وتوجه تصوراتهم لما يعد مشكلة ولما لا يعد، ، وتصوراتهم حول صورة المجتمع في المستقبل .

هذه الثلاثية الفلسفية أو الابستمولوجيا (المعرفة) ، والأنطولوجيا (المعتقدات والأديان)، والاكسيولوجيا (منظومة القيم والاتجاهات والثقافة: العادات والتقإلد والمعايير والاعراف التي تحكم سلوك الناس وأحكامهم) .

هذه الثلاثية الفلسفية، يجب أن تكون هي الأساس الذي ينطلق منه الباحثون في علم الاجتماع، سواء لدعمها أو تعديلها او إصلاحها وصولا

إلىمواجهة المشكلات والأزمات، وتحقيق أقصى تقدم ممكن، والوطنية والثقافة للمجتمع المدروس .

كل هذا يتطلب من علماء ودارسي علم الاجتماعإنشاء رصيد معرفي عربي مصري من حيث المفاهيم والمقولات والنظريات المستخرجة من الواقع التاريخي والمعاصر للمجتمعات العربية مع الاستعانة بما يصلح من كل التراث السوسيولوجي العالمي الشرقي والغربي، القديم والحديث .

ولا شك أن هذا الإسهام لعلماء الاجتماع في مصر والعالم العربي في تحقيق هذا المطلب ضعيف جدا، وما تزل التبعية للغرب هي الأصل (راجع نشأة علم الاجتماع في مصر وهي التى أدخلته إلى العالم العربي) . ولعل هذا ما يجعلنا عاجزين عن الحديث عن علم اجتماع مصري أو عربي، كما أن هناك علم اجتماع فرنسي، ألماني، وايطإلى وروسي ... إلخ .

أقول هذا مع أن ابن خلدون مؤسس علم العمران البشري الذي هو علم الاجتماع، أقام علمه على مفاهيم وتصورات وصاغ نظرياته استنادا إلى واقع العرب والبربر في عصره، في مصر وشمال أفريقيا والأندلس، وقد شخص أحد علماء الاجتماع آسيا ٢٠٠٦ وهو فريد الغطاس هذه الظاهرة بقوله : إن المشتغلين بعلم الاجتماع في آسياوالوطن العربي، يقعون أسرى للتبعية الغربية وللفكر الغربي، وأن عقولهم ما تزال سجينة المعارف والنظريات الغربية . ويشير إلىأن ضعف التكوين الوطني والثقافي للمشتغلين بهذا العلم واقتصارهم على دراسة منجزات علم الاجتماع الغربي أفقدهم القدرة على الإبداع، وعلى ابتكار حلول جديدة لمشكلات وأزمات مجتمعاتهم وتاريخهم، والمعتقدات والقيم السائدة في مجتمعاتهم، ولديهم الولاء الوطني والرغبة في إعلاء شأنه، وهذا يسهم في تأسيس فكر

سوسيولوجي جديد غير منساق للغرب، أو الشرق، منطلق من الواقع التاريخي والمعاصر للمجتمات العربية، ومن رؤية معرفية (ابستمولوجية) للثقافة العربية والإسلامية . ومصر والعالم العربي تحتوى على ملايين الظواهر والقضايا الاجتماعية المحتاجة للدراسة والفهم والتشخيص بعلمية وموضوعية وتجرد، وصولا إلى بناء معارف ونظريات وتصورات جديدة تسهم في قدم هذه المجتمعات وإلخروج به من أسر التبعية للغرب، فاستقلال البحث والعلم أداة مهمة ومقدمة ضرورية لاستقلال المجتمع . وهذ ما فعله ابن خلدون عندما صاغ العديد من النظريات من خلال مشاهدته لواقعه المعاصر، وغوصه فى التاريخ، وفهم حقيقة الإسلام كعقيدة وشريعة وأخلاق وحضارة .

ولعل علم الاجتماع الغربي المهيمن إلدوم على علم الاجتماع في قارات العالم إلخمس، قد كشف العديد من علماء الاجتماع الغرب زيفه وتوظيفه في خدمة السياسة والرأسمالية المتوحشة، وأكثر من ذلك في خدمة أجهزة الاستخبارات الأمريكية والغربية لدعم الشركات الغربية الرأسمالية، وتعويق نمو مجتمعاتنا ومجتمعات العالم الثالث . ومن أشهر هؤلاء العلماء (ألفين جولدنر) في كتابه (الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي)، وكذلك (أرفنج زايتلن) في كتابه(الايديولوجيا وتطور النظرية في علم الاجتماع)، و(تشارلز رايت ميلز) في كتب له كثيرة منها (إلخيال السوسيولوجي) ، و(الماركسيون) .

وإذا ما تحدثنا عن نظريات علم الاجتماع التى ندرسها لأبنائنا نجد أن بعضها على الأقل ايديولوجيات صاغها علماء اجتماع الغرب لجر الدول

النامية كي تكون تابعة للغرب الرأسمإلى، وهي في الواقع لا تمت إلى الموضوعية والعلمية بصلة، ومنها على سبيل المثال مايلي :

١) نظريات التحديث لوالت وتمان روستو، في كتابه (مراحل التطور : بيان غير شيوعي) وغيره من العديد من علماء الاجتماع . هذه النظريات تحدد مراحل وحيد للنمو، ونموذج وحيد للتقدم، وهي مراحل تطور الدول الأوروبية، ونموذج الحياة والنظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الغربية وهذا في نظر أغلب علماء اجتماع الغرب هى المراحل الموصلة للتقدم، ويجبعلى الدول النامية السير عليها إذا أرادت التقدم وهذا يعني استنساخ النموذج العربي .

٢) نظريات التبعية الماركسية الأصل، وتشير إلىأن الحل يكمن في القضاء على الرأسمالية والملكية الفردية والطبقات .. إلخ . وأنه لا أمل أمام الدول النامية إلا بالقضاء على الرأسمالية العالمية والثورة البروليتارية.

٣) نظريات فوكوياما حول نهاية التاريخ، ونظرية هنتنجتون حول صدام الحضارات.

والواجب عند دراسة الواقع الاجتماعي في مصر والعالم العربي، لا يمكن إقصاء الرؤية الإسلامية، فالإسلام شريعة وعقيدة وأخلاق وحضارة وسيرة وتارخ له رؤية شاملة حول كل قضايا علم الاجتماع من تفاعلات وعلاقات ونظم وسلوك ومشكلات وحلول وتنمية وتغير، وله تصور حول المجتمع والدولة كنسق، وحول حقوق الناس وحرياتهم، وحول المجتمعات في السلم والحرب .. إلخ . هذه الرؤية فاعلة ومؤثرة في واقع سلوك وعلاقات الناس، وواقع المجتمع بنظمه وأنساقه وبنائة، لا يمكن تجاهلها .

ويري البعض أنالإسلام على الأقل مثله مثل الرأسمالية والاشتراكية مؤهل لتأسيس علوم اجتماعية تتماشي مع رؤيته للفرد والمجتمع والدولة .

ويجب القول هنا أن الفرق شاسع بين الإسلام كدين إلهي، وبين النظم الوضعية، لكن المقصود أن هذا ما أدى بابن خلدون إلىإنشاء علم العمران البشري . فقد توصل إلى هذا العلم من خلال ملاحظاته الميدانية، ودراساته التاريخية، دون أن يفصل بين المعرفة العقلية، والمعرفة النقلية في تحليله وفهمه وتفسيره لشئون الأفراد والمجتمعات .

فإذاكان علم الاجتماع الغربي يؤكد على ضرورة الفصل بين الدين والعلم لظروف ألمت به في القرون الوسطى، فالباحثين العرب يجب ألا يفعلوا هذا لعدة أسباب أهمها أن العلم فريضة إسلامية، ولأن الشريعة الإسلامية ناقشت كل قضايا الأفراد والمجتمع والدولة، ولأن عقيدة وقيم وثقافة الإسلام مؤثر قوي جدا في سلوك وعلاقات الناس، وحتى في صياغة ونظم وقوانين المجتمعات والدول، وإذاكان هناك صراع بين الدين والعلم في الواقع التاريخي والمعاصر لأوروبا، ، فإن هذا غير موجود إطلاقا في ديننا الإسلامي وفي واقعنا العربي، لاختلاف المجتمعات واختلاف الأديان . ومن يعرف صحيح الإسلام يدرك أنه جعل العلم فريضة، والتوصل إلى سنن الله في الكون والتاريخ والإنسان والمجتمع فريضة دينية . وهذا يعني أن العلم التجريبي الذي أبدعه العقل المسلم، هو جزأ لا يتجزأ داخل عباءة الإسلام، ولا يوجد أي تناقض أو صراع أو اختلاف كما في حالة المجتمعات الغربية.

ويؤكد التاريخ الإسلامي أنه لم يكن هناك عداء في أي فترة بين سلطان الحكم وبين العلماء، بل أن الكثير من الحكام قرب العلماء فكانت

التراجم وكانت الابداعات، وكان اختراع واكتشاف الآف القوانين العلمية، وتقدم المجتمعات . فالعلم والدين في الإسلام يؤسسأن معا ثقافة علمية وواقع متقدم هو ما يطلق عليه العالم البريطانية (سي بي سنوا) (الثقافتين)، وهذه عندنا في الإسلام ثقافة واحدة هي الثقافة الإسلامية، لأن العلم التجريبي جزأ لا يتجزأ من هذه الثقافة، فالعلم الإسلامي يتضمن علوم الدين وعلوم الدنيا الطبيعية والبيولوجية والاجتماعية والإنسانية ..إلخ .

١. *الفكر الاجتماعي بين الثقافة والمنهجية والدين :

شغلتني منذ أكثر من ثلاثين عاما قضية مهمة وهي مدى إمكانية تحقيق العلمية والموضوعية في مجال العلوم الاجتماعية بنفس مفهوم العلمية والموضوعية في العلوم الطبيعية. وقد استعرضت العديد من الدراسات النقدية في مجال علم الاجتماع، مثل دراسة (ارفنج زايتلن)، بعنوان (الايديولوجيا وتطور النظرية في علم الاجتماع)، ومثل دراسة (ألفين جولدنر) (الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي) ومثل دراسة أشرف على تحريرها (تریاكيان) بعنوان (ظاهرة علم الاجتماع)، ومثل دراسة (فريدركس) بعنوان: (علم اجتماع علم الاجتماع)، ومثل دراسة (روبرت نسبت) بعنوان (التراث السوسيولوجي) .

وغيرها من الدراسات، وقد وجدت أن ظاهرة علم الاجتماع كما يطلق عليها(تریاكيان)، إنما برزت كرد فعل لظروف تاريخية وسياسية واقتصادية واجتماعية، كرد فعل لثورات وقعت، سواء الثورة الفرنسية أو الانجليزية أو الثورة الصناعية أو استجابة لعوامل طبقية، حيث وجدت طبقات صاعدة وأخرى هابطة، ولكل منها مجموعةفلسفات أو بناءات فكرية وأيديولوجية

تحاول مساندتها في صراعها مع الاخر ... كل هذا يشير إلى ارتباط النظريات والأفكار وأنساق الفكر الاجتماعي منذ بداية تشكيلها في شكل علوم اجتماعية بالمصالح الاقتصادية والسياسية والطبقية والاجتماعية، ومن ثم بالايديولوجيات .

هذا بالطبع فضلا عن ارتباط الفكر الاجتماعي الفلسفي والمعياري والعملي بهذه المتغيرت منذ ظهر في حضارة الشرق الادنى القديم، وحضارة الاغريق والرومان منذ العصور القديمة، في عصر الفلسفات الاجتماعية والمواجهات الفكرية الاجتماعية للواقع الاجتماعي والمجتمعي على مدى عصور التاريخ .

وقد عالج الباحثون، سواء أنصار مدرسة فرأنكفورت الذى ظهر في الربع الأول من القرن العشرين، او من أنصار المدرسة النقدية في أمريكا مثل (تشارلز رايت ميلز) في كتابه حول (الخيال العلمى الاجتماعي)، فقد قارن هذا الأخير بين مدرستين، الأولى هم أنصار النظريات الكبرى، وهذه أقرب إلى النظريات الفلسفية التى ليس لها مصداقية واقعية، وهذه تنطلق من أيديولوجيات ومصالح وأهداف مسبقة، أما الثانية فهى مدرسة الامبيريقية المجردة أو التجريبية المجتزأة، وهذه تحت دعوى الموضوعية والحيدة العلمية تدرس موضوعات صغيرة تنتزعها من سياقها الاجتماعي والثقافي والسياسي والاقتصادى العام، وبالتإلى تصبح معزولة تستعصي على الفهم الكلي والشمول العلمى . وسوف نفصل القول في هذه الآراء عند التعرض لنقد علم الاجتماع الغربي .

أما بالنسبة لمدرسة فرانكفورت، فقد عبر عنها مجموعة من الباحثين في معهد البحوث الاجتماعية هناك، وعبر عنها بعض الرواد مثل (بولوك) و(لوفنتال)، و(كارل ونفوجل) وغيرهم .

وتنطلق هذه المدرسة النقدية من مجموعة مرتكزات أهمها :

١) لا يمكن عزل الفكر الاجتماعي والثقافي للناس عن الظروف الاجتماعية والسياقات المجتمعية التى يعايشها، ومن هنا فأنه يجب على الناقد الاجتماعي الوقوف على المنطلقات الفكرية والطبقية والتربوية، والأهداف العليا التى يسعي إلىها صاحب لنظرية أو الفكر الاجتماعي .

٢) يجب على الباحث الاجتماعي معايشة موضوع بحثه، بحيث يفصح عن أنتماءاته وأنحيازاته وتفضيلاته وأهدافه الفكرية بأسلوب مباشر دون إخفاء . فمن خصائص الظواهر الاجتماعية والمجتمعية لتحيز والخصوصية والنسبية ووجود خلفية أيديولوجية ومصالح خاصة وراءها، ولهذا يتعذر التعامل معها بنفس أسلوب تعاملنا مع الظواهر الطبيعية بخصائصها المادية وشروطها الاجرائية . وهذا يعنيأنصار مدرسة فرانكفورت الذين يعارضون ما أطلق عليه كارل بوبر أنصار المذهب الطبيعى

٣) الاعتراف بالتنوع الثقافي والبشري، وإقرار الخصوصيات الحضارية والثقافية لكل شعب أ فئة أو مجموعة من الناس . وهذا يتطلب من الباحث تملك إلىات الفهم والتحليل النقدي لتفسير وفهم كل موقف أو جماعة أو مجتمع بخصائصه المتميزة .

٤) الرجوع إلى التاريخ أو التحليل التاريخى للظواهر الاجتماعية والثقافية لفهم ظروف نشأتها، وأسباب ظهورها، واتجاهات تطورها، وأهم العوامل المفسرة للظهور التاريخى وللتطور عبر الزمن . هذا التحليل التاريخى والتطور مهم جدا من أجل الوصول إلى معأني الظاهرة ودلالاتها والاطر الثقافية والاجتماعية والسياسية .. لخ المرتبطة بها .

٥) الموضوعية في العلوم الاجتماعية لها معاني تختلف عنها في العلوم الطبيعية، فإذاكانت الموضوعية في الأخيرة تعنى التجرد من أية فكرة أو هدف مسبق، حيث ينطلق الباحث في دراسته وعقله صفحة بيضاء، فإن مفهوم الموضوعية في العلوم الاجتماعية يختلف تماما لأن تحقيق هذا الأمر مستحيل في هذه العلوم، وهذا يعني أن الموضوعية في العلوم الاجتماعية تتطلب من الدارس الكشف عن منطلقاته وتفضيلاته وقناعاته وتوجهاته وأهدافه، وهذا وحده هو ما يحق اقصى دجات ايجابية من الموضوعية في منظومة العلوم الاجتماعية .

٦)على الباحث النقدي إدراك حقيقة تعقد وتعدد وتشابك العوامل المسؤلة عن افراز الظاهرة الاجتماعية، والسعى نحو الإحاطة بهذه العوامل وتحديد أوزأنها بقدر الامكان.

٧) المنهجية النقدية للبحث تستهدف تحقيق أهداف محددة، من أهمها الانحياز للحق والخير والعدل والحرية.

هذه الأمور التى سوف نفصلها، تؤكد أن منظومة العلوم الاجتماعية تختلف في بعض جوانبها عن منظومة العلوم الطبيعية والحيوية والرياضية، في أن لها منطلقات عقائدية أو أيديولوجية، وأنها لا تستهدف الوصولإلى غايات وتبرير أمور محددة.

كل هذا يعني اختلاف مفهوم الموضوعية العلمية في كلا المنظومتين.

فإذاكانت العلوم الاجتماعية على مستوى الأبحاث الصغرى يمكن أن تقترب من مفهوم الموضوعية في مجال العلوم الاجتماعية (مثل دراسة أثر متغير كالاشراف علي متغير أخر كالإنتاجية، أو معرفة أثر أسلوب معين للادارة على تحقيق أهداف التنظيم، أو معرفة أثر طريقة للتدريس على استيعاب الطلاب ... إلخ) فإنه على المستوى الأكبر والأكثر اتساعا فإنالأمر يختلف حيث لا يمكن الوصول إلىقوانين تحكم كل المجتمات، في كل الأزمنة، وفي كل الظروف، وداخل كل السياقات .. من خلال إلىات البحث الاجتماعى المطروحة . وحتى على مستوى البحوث المحددة فأن هناك متغيرات وسيطة متعددة تحول دون الوصول إلىقوانين عامة تصدق في كل زمان ومكان وموقف . وبالنسبة للأمثلة التى التى ضربتها فإن أسلوب الإدارة المحقق لأقصي قدر من الأهداف يختلف باختلاف الموقف، فهو في المواقف العسكرية، غيرها في المواقف الصناعية، غيرها في المواقف البحثية والجامعية .. إلخ .

وأساليب وطرق التدريس يختلف في العلوم الاجتماعية، عنها في مجال العلوم الطبيعية، غيرها في مجال الرياضيات .. كذلك فإن السياقات السياسية والثقافية والتربوية تعد عوامل فارقة ومتغيرات وسيطة وهكذا .

وقد نشأت العلوم الاجتماعية في الأصل من خلال إبداع العقل المسلم، فهناك علم (العمران) الاجتماع الذي أبدعه ابن خلدون، ، وهناك العلوم السياسية التى عالج قضاياها العديد من العلماء المسلمين أمثال (الماوردي وابن الأزرق، وابن الأعرج، وغيرهم) وهناك علم الإنسان الذى

عالج قضاياه العديد من علماء المسلمين (أبو جبير، والبيرونى وغيرهما...) ...إلخ.

لكن هذه العلوم لم يطورها المسلمون منهجيا ونظريا، حتى آفاق الغربيون من عصورهم المظلمة والتى استمرت من القرن الخامس حتى ما بعد العاشر الميلادي، وترجموا الإبداعات العلمية الإسلامية بعد التعرف عليها من خلال معابر ثقافية وحضارة المسلمين إلى الغرب والمتمثلة في الأندلس، وجزيرة صقلية، والحروب الصليبية، والفتح التركي العثماني، ونشرهم للإسلام في أوروبا وآسيا.

هنا نهل الأوربيون من العلم الذي أبدعه المسلمون سواء على مستوى العلوم الطبيعية أو على مستوى العلوم الاجتماعية . لكن الغربيين كانوا مثقلين بتجاربهم المريرة في العصور الوسطى المظلمة التى سيطرت وتسلطت فيها الكنيسة، وفرضت فكرا دجماتيقيا، وحالت دون حرية التفكير وحرية التعبير، وارتكبت أبشع الجرائم في حق العلماء والمفكرين ولاحقت كل من تسول له نفسه استخدام أدوات البحث العلمي من ملاحظة أو تجارب او استنباطات عقلية مستقلة، مارست كل هذه الجرائم باسم الدين والوحى السماوي، والحقوق الإلهية المقدسة، فكانت محاكم التفتيش، وكانت عقوبات الإعدام قتلا وحرقا للعلماء .

هذه التجارب المريرة ألقت بظلالها بقوة على فكر قادة عصر النهضة في أوروبا من القرن ١٥ م وحتى القرن ١٨ م، ثم على قادة عصر التنوير بعد ذلك، وحتى الأن فبعد تنعمهم نسبيا بحرية الفكر وترجمة فكر أسلافهم من الإغريق والرومان وترجمة العلومالإسلامية، تبنوا نظرة دائية

لإقحام الدين أو أى شيء يتصل بالوحي أوالروحانيات عند فهم ودراسة قضايا الإنسان والمجتمع والتقدم .

هذا الاستبعاد أو حتى عدم الاعتراف أو الاقتراب من الدين والوحي، اكتفاء بالاعتماد على مصادر الحس والتجربة والاعتماد على التفسيرات العقلية الإنسانية لقضايا الإنسان والمجتمع، حرم الفكر الغربي من مصدر مهم وضروري لمعالجة القضايا المذكورة . وهذا ما أدى إلى الانفصام بين مجموعة مداخل ومصادر متكاملة للمعرفة وهى الحس والعقل والوحي . هذه المصادر حدث بينهاإنفصام في التجربة الغربية، حيث كان ما يأتي به الوحي يتناقض تماما مع ما يأتي به الحس والاستقراء للواقع . وما يحكم به العقل السليم، وكان العلماء والمفكرون مقهورين على التسليم بأراء وتوجهات الكنيسة الناطق الرسمى عندهم باسم الوحي حتى يظلوا على إيمانهم بالمسيح ويحققوا خلاصهم الروحي من خلال المسيح المخلص .

لعل هذا هو ما أدى إلى معاداة الوحي، والمناداة بضرورة استبعاد الدين والجوانب الروحية عند معالجة قضايا الإنسان والمجتمع . وقد كان هذا أمر مفهوم ولا يلامون عليه . فالعلم والمنهج ونظرية المعرفة والنموذج الفكري في أي عصر، أمور لا يمكن عزلها عن السياق الثقافي والتاريخي المصاحب له، وكان من المنطقي أن ينطلق المشتغلون بعلوم المجتمع والإنسان من الواقع الحسى المشاهد والمحسوس (لوك وهيوم)، ثم الاعتماد على الأطر والمقولات العقلية الخالقة للمبادئ والمكتشفة للعلاقات بين ما تمدنا به الحواس من معطيات، فالعقل هو القادر على الربط بين الحقائق المتكاثرة والمفككة في إطار مفهوم، وهذا يعنى أن العقل ليس مجرد حزمة من المدركات الحسية، ولكنه قوة فاعلة . فالعلوم

الطبيعية عند (ديكارت) يجب أن تؤسس على معيار اليقين المطلق، والمعايير النهائية لصدق الأفكار وصحتها هي : الوضوح، والدقة، والبعد، التناقض، . هنا يصبح الفهم العقلي أرقى كثيرا من معطيات الحس، وهكذا يصبح العقل البشري فقط هو الحكم على العلم بالصدق او الزيف .

وفي مقابل الاتجاه التجريبي الحسي عند (هيوم)، والاتجاه العقلي عند (ديكارت)، ظهر اتجاه نقدى عند (كونت) في دراسة له عن (نقد العقل إلخالص)، حاول فيها التوفيق بين هذين الاتجاهين، فالمدركات الحسية هي المادة إلخام التي تقدمها الحواس، وهي مشتتة متفرقة متكأثرة لا تكون بذاتها علما . أما العقل فهو مجموعة من المقولات المنطقية مثل مقولة التتابع الزمنى (الزمان) أو المكانى(المكان) أو العلية . هذه وحدها مقولات فارغة لا تكون علما أو معرفة . هذه العلاقة تتكون من استقبال المعطيات الحسية وتنظيمها من خلال المقولات العقلية، وتنظيم المقولات والتفسير الدينى الذي يلقى الأسباب على عوامل غيبية، ويؤمن أن الغيبيات هي أدنى مراحل التفكير البشري، ويمثل طفولة الفكر الإنساني، ويعني العجز الإنساني عن الوصول للتفسير الصحيح، ثم ترتقي المجتمعات إلى مرحلة التفسير العقلي، ثم تصل إلى قمة النضج بالاقتصار على الفكر الوضعى الحسى الذي يعتمد على الأدلة الواقعية وعلى المشاهدة والتجربة .

ويتوقف النمو البشري على استبعاد المناهج والتفسيرات الدينية والعقلية والفلسفية، والاقتصار على الفكر المعتمد على الأدلة والشواهد الحسية . ويمكن تشخيص المشكلات الاجتماعية بإرجاعها إلى رواسب الفكر الديني والفلسفي التى يجب تجاوزها غير أنه وبعد فترة أدرك (كونت

) حاجة المجتمع إلىالجوانب الدينية، فلم يشأ أن يعود إلى الفكر المسيحي الذي ساد في القرون الوسطى، ولكنه اقترح ديأنة جديدة، أطلق عليها ديانة الإنسانية أو المسيحية الجديدة، لا يوجد فيها إله يعبد، وإنما العابد والمعبود فيها هو الإنسان .

*الوضعية وبروزها في العلوم الإنسانية :

وتجدر الملاحظة أن ظهور مصطلح العلوم الإنسانية في الغرب الذي نقلناه عندنا لا يشير إلى العلوم الاجتماعية (مع جود بعض جوانب الإلتقاء والاختلاف بينهما) وأطلق على بعض الكليات، ومثال هذا كلية الدراسات الإنسانية بجامعة الأزهر، وقسم العلوم الإنسانية بمعهد البحوث والدراسات البيئية بجامعة عين شمس وغيرها .. هذا المصطلح لا يشير إلى العلوم المتصلة بالإنسان، في الفكر الغربي، ولكنه يشير إلى مجموعة العلوم التى تؤخذ المعرفة فيها من الإنسان وليس من الوحي الرباني، أو من مصدر دينى متعالى (بالمعنى الكانطي)، وهذا يعنى القطيعة بينها وبين الدين.

ولعل أغلب الاتجاهات الغربية في مجال العلوم الإنسانية مصدرها التجربة الدينية المريرة التى حولت العصور الوسطى الأوروبيةإلى عصور الظلام . خاصة حتى القرن الثاني عشر الميلادي، ومصدرها النظر إلى الإنسان ومجتمعه على أنه تطور عن الحيوأنات، واستبعاد كل المصادر الدينية لغيبية، واقتصار أهدافه من الحياة على تحقيق أقصى درجه من القوة، وأقصى درجة من الاستمتاع واللذة دون ضابط من قيم دينية أو رقابة إلهية أو يوم آخر للحساب والعقاب .

وقد مارس الاتجاه الوضعي أثرا كبيرا في تشكيل فكر المشتغلين بالعلوم الاجتماعية والإنسانية، وعلى التوجه الرئيسي في كل مدارس علم الاجتماع المتصارعة . سواء المدارس الليبرإلية . مثل مدرسة الفعل الاجتماعي عند (بارسونز)، و(فيبر)، أو مدرسة التفاعلية الرمزية، والتبادلية السلوكية، أو البنائية الوظيفية التى أسسها (دوركايم) في فرنسا، و(فرانز بواس) في أمريكا، فحتى أصحاب بعض المدارس التى

اهتمت بمنظومة القيم وأثر التوجهات القيمية في تشكيل السلوك والفعل والنظم الاجتماعية مثل ماكس فيبر، والتى حاولت الوقوف في وجه شبح الماركسية (حسب قول أرفين) العقلية للمادة الحسية، من أجل فهمها وتفسيرها وتنظيمها، وهذا ما يفسره لنا بناء النظريات والقوانين العلمية للاقتصار على التفسيرات المادية وإلغاء مصدر العرض لمصدرهم للمعرفة .

هذه المحاولات لبناء نظرية في المعرفة، وتحديد مصادرها وأدواتها وحدودها، استبعدت تماما أية إشارة إلى الدين والوحى والضوابط الروحية، وأدت الى ظهور الاتجاه الوضعي الذي ضيق إلى حد كبير مفهوم العلم، ويعرفه (تيودرسون)، في القاموس لجديد لعلم الاجتماع بأنه موقف فلسفى يؤمن بعد إمكان التوصل إلى المعرفة إلا من خلال إلخبرة الحسية، ويرفض كل ما يتصل بالغيب أو ما وراء الطبيعة أو الحدس أو التحليل المنطقي، لأن هذه الأمور تبعدنا عن نطاق المعرفة الحقيقية . ويشيرانإلىأن مناهج العلوم الطبيعية هي المناهج الوحيدة والدقيقة للوصول إلى المعرفة . وعلى هذا فإن على العلوم الاجتماعية استخدام نفس هذه المناهج، والنظر إلى العلوم الطبيعية على أنها النموذج الأمثل الذي يجب السير على هداه، وإلا استبعدت من دائرة العلم. وقد جسد (أوجست كونت) هذا الاتجاه الوضعي حرفيا في كتابه الضخم بعنوان: (دروس في الفلسفة الوضعية)، وكانأول من عبر بوضوح عن هذه الحركة الوضعية في مجال العلوم الاجتماعية بشكل عام، وعلم الاجتماعإلى ادعي اكتشافه بعد تحديداسمه بشكل خاص (سوسيولوجي)، وكما يشير (هربرت فيجل) في دائرة، المعارف البريطانية، فإن الفلسفة الوضعية التي تقوم عليها العلوم الحديثة تؤكد على عدة نقاط:

١) أن كل المعارف المتصلة بالحقائق الواقعية لا تقوم إلا على شواهد إيجابية أو واقعية تستمد من إلخبرة الإنسانية .

٢) وإلىجانب الحقائق الإيجابية، هناك مجال المنطق والبحث والرياضة البحتة، وقد اعتبرت علوم صورية، حيث تبحث في ضوء الفكر والمنطق العقلي وليس في المحتوى المادى المتعين للأشياء .

٣) وبالنسبة للجانب السلبي، فالوضعية تنكر كل ما لا يمكن حسمه بالرجوع إلىالخبرة الحسية المباشرة والأدلة الواقعية . وهذا يعنى إنكار كل ما يتصل بما وراء الطبيعة كالنفس والألوهية وإلخلود والمجالات المتعإلة المجاوزة لها(بالمفهوم الكانطي) .

وهكذا حدد الاتجاه الوضعي أنه على منظومة العلوم الاجتماعية أحد خيارين:

الأول: أن تقتدي بمنهج العلوم الطبيعية الذي ثبت نجاحه وهو المنهج الوضعي

الثاني: أن تصبح فلسفات خيإلة لا جدوى من ورائها أو تصبح يوتوبيات.

وقد أكد (كونت) هذا التصور في قانونه حول(الحالات الثلاث)، والذي أوضح فيه موقع كل من الفكر والمناهج الدينية والعقلية والوضعية وعلى العكس من هذا نجد نظرية (فيبر) .

فالفكر عند (زايتلين) كالآتى : حيث جعل النسق الديني والتوجهات القيمية هي الأساس الأسفل، الذي يشكل كل نظم ومؤسسات البناء العلوي للمجتمع، مثل النظام الاقتصادي والسياسي والأسري ..وكان هذا هو

الموضوع الأساسي لدراسته بعنوان: (أخلاق لمحتجين وروح لنظام الرأسمالى) .

وذلك على عكس التصور الماركسي للبناء الاجتماعي . حتى هذه الفئة من العلماء اتفقت في النهاية مع الفكرالماركسى والوضعي في رفض الميتافيزيقيا، وإقصاء الدين والتفسيرات الغيبية عن الواقع الاجتماعي . فقد ذهب (فيبر)إلىأن التفسير الدينى و الغيبي كان لهأهميته ودوره في المجتمعات البدائية، وقبل ظهور التفسير العلمي، والتقدم في علوم الطبيعة والبيولوجيا. أما بعد تحقيق الفهم والتفسير العلمي للظواهر التى كان يتم ارجاعها إلى عوامل غيبية، لم تعد هناك حاجة إلى الدين، أو إلى القول بوجود إله أو الحاجه إلى فكرة الوحى السماوي، حسبما يري أحد المتخصصين في فكر (فيبر) وهو (مدجلي) في دراسة مهمه له بعنوان:(أيديولوجية ماكس فيبر) وهذا يعني أنأصحاب نظرية ما يطلق عليهم المدارس الدينية والقيمية في فهم وتفسير لحياة الاجتماعية، التقوا في النهاية مع المدارس الوضعية والماركسية في رفض الدين أو الوحي أو الغيب كمصدر للمعرفة، وكعامل مفسر للحياة الاجتماعية، أو كضرورة لتنظيم وضبط وتوجيه العلاقات والنظم والمجتمعات الإنسانية .

ويشير (رجب) إلىأن هذا هو ما حدث بالنسبة للمدارس الإنسانية أو أصحاب المداخل الإنسانية في دراسة علم النفس . هذه اضطرت تحت تأثير المتغيرات الواقعية إلى الاعتراف بوجود وتأثير القيم والعوامل غير المادية في تشكيل سلوك الإنسان وفعله الاجتماعي، وتشكيل علاقاته، وتشكيل النظم والحياة الاجتماعية، يمثل هذه الاتجاهات (ارفين تشايلد) و(روبرت اجروس) و (جورج ستانسو) .

وعلى الرغم من أن المدخل الإنساني في دراسة علم النفس يحاول فهم الإنسان كقوة واعية، وليس مجرد حيوان دارونى متطور أو جهاز إلى. فالإنسان ليس مجرد حزمة من ردور الأفعال والاستجابات للمثيرات والدوافع والإلبات النفسية، وأنما هو كائن واع مدرك حر في خياراته، يسعي لتحديد أهداف يحددها بنفسه . هذه الأهداف ترتبط بالضرورة بمنظومة قيم توجه وتحرك سلوك الإنسان نحو غايات محددة . وهذا يعنى عن (اجروس ،وستاتسيو) أن هناك وجود للحياة الفكرية والأخلاقية والروحية عند الإنسان تماما مثل أن هناك حيا بيولوجية . هذه هى المسؤلة عن القيم الأخلاقية والفكرية والجمالية . ويظهر أثر التوجه الوضعي جليا في أن هذه المدرسة تحاول تجنب الربط بين الجوانب الروحية وبين المعتقدات الدينية، أو بينها وبين علاقة الإنسان بربه . هذا في النطاق العلمي . حسب زعمهم . لكن على النطاق الشخصي نجد أن كلا من الباحثين المذكورين يؤكدأن على المستوى الشخصي أن هناك إله حكيم وراء هذا الكون بأنتظاماته وقوانينه التى تحكمه . ولا شك أن الفشل في الربط بين الأمرين _ الجوانب والحاجات الروحية _ عند الإنسان وتنظيم حياته وقيمه .. من جهه ، وبين الدين والوحي وتوجيهات السماء من جهة أخرى، أنما يرجع إلى تشويه صورة وحقيقة الدين ف ذهن الإنسان الغربي كنتيجة للإرث التاريخى الأوروبي، إلجانب التعددية الدينية الواقعية في المجتمعات الغربية التى جعلت تبني العلمانية هو الأنسب من وجهة نظرهم، وهي المخرج من التحجر والجمود، ومن الصراعات .

هذه التجربة الأوروبية في فترتها الأولى التى اعتمدت على الوحي والتسلط الديني، والحجر على حرية التفكير والتعبير، والتنكيل بالعلماء

باسم وحي ونظريات دينية زائفة . والثانية بعد استيعاب الوحي واحلال العلم مكانه، واستبعاد الألوهية والقداسة واحلال الإنسان بدلا منه، واستبعاد إلدوم الآخر والاقتصار على الحياة الدنيا، واستبعاد الجوانب الروحي والاقتصار على الجوانب المادية، هذه التجربة هي المسؤلة عن تشويه منظومة العلوم الاجتماعية، سواء على مستوى المنهجية والمنظور المعرفي، أو على مستوى مضمون هذه العلوم ونظرياتها ومقولاتها، والسبب هو أن هذه العلوم تعالج موضوعات تختلف جوهريا عن موضوعات العلوم الطبيعية، وتحتاج إلى منهجية ومصادر للمعرفة قادرة على التوفيق بين الحس والعقل والنقد والقلب من جهة وبين الدين والوحى الإلهي القادر على الاجابة على تساؤلات مستعصية على الفكر الوضعى (مثل من هو الإنسان، وكيف خلق، وما هى أهداف خلقه، والقادر على تحديد معايير لصلاح الإنسان والمجتمع تتجاوز النسبية الزمانية والمكانية والثقافية، وتتجاوز حدود طاقات الحس البشري، والعقل الإنساني المحدود بأطر الزمان والمكان والثقافة والامكانات البيولوجية الضيقة والمحدودة .

هذه التكاملية من منظومة الوحي بوصفها الضابط والحاكم والموظف لكل ما عداه من مصادر للمعرفة كل فيما يصلح له، هي وحدها القادرة على تحقيق التقدم المزدوج والمتوازن في المجالات المادية (اقتصادية وعلمية وتكنولوجية وعسكرية) والروحية (الأمن النفسي والروحي وراحة البال والصحة النفسية والعلاقات الراضية المرضية والسكينة والطمأنينة والبركة والرضا عن الله وعن الاخرينوعن النفس ...إلخ) قال تعإلى : (الذين ءامنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب)، وقال

تعالى : (الذين ءامنوا ولم يلبسوا ايمأنهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) .

ولعل هذه الإشكالية لتى يعيشها الإنسان الغربي، وتلك الأزمة التى يعأنيا وهي القلق وتفكك الأسرة والأنحراف والمخدرات وارتفاع العنوسة والعزوف عن الزواج وتزايد معدلات الأمراض النفسية والأنتحار .. وسط الوفرة المادية، هو المقصود بالضنك الذي ورد في القرآن الكريم (ومن أعرض عن ذكري فأن له معيشة ضنكا)، وما ذاك الإنتيجة للأنفصال عن هدى الله وعن جوهر الإنسان بجانبية الروحي والمادي لما خلقه الله .

وكما يشير مالك بدري بحق فإن اعتبار الجوانب الروحية غير مهمة في فهم السلوك وفهم مكونات الصحة النفسية، هو تعبير عن فهم غير علمي أو غير منصف لحقائق علم النفس . فبغير هذه الجوانب الروحية يهبط الإنسان عن مرتبة الحيوأن . يقول تعإلى (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام النار مثوي لهم) (محمد :١٢) .

هذه هي القضية، فالعلوم الاجتماعية ليست نباتا غريبا في الأساس، والمنهج العلمي ليس افرازا للفكر الغربي في الأساس ،ولكنه إفرازا للعقل المسلم . والمسلمون هم الذين انطلقوا في دراسة الإنسان والمجتمع والتاريخ والتنوع الثقافي ،كما انطلقوا في دراسة الكون بظواهره الطبيعية، وفي دراسة الإنسان بجوانبه المختلفة . انطلق المسلمون في اكتشاف المنهج العلمي وفي دراسة وإبداع منظومة العلوم السياسية والاجتماعية والطبيعية تحت تأثير توجيهات القرآن الكريم والسنة المطهرة التى طلبت من الإنسان النظر في النفس وفي الآفاق والسير في الأرض واكتشاف سنن الله في الكون والمجتمع . ومن هنا اعتبر التفكير والبحث العلمي جزأ

لا يتجزأ عن عبادة الإنسان لربه . ويرجع الفضل في اكتشاف المنهج العلمى عند الرواد المسلمين إلى علماء أصول الفقه، خاصة في مباحث العلة . شروطها ومالها (السبر، التقسيم، الدوران ...) لكن المسلمين أدركوا اختلاف مجال الدراسات الطبيعية عن الدراسات الاجتماعية، لاختلاف طبيعة ظواهر الكون الطبيعي عن ظواهر الإنسان والمجتمعات، ومن هنا أدركوا مبكرا أن منهجية الدراسة في العلوم الكونية تتفق في بعض الجوانب، وتختلف في جوانب أخري عن الدراسة في العلوم الإنسانية والطبيعية . فالظواهر الطبيعية منتظمة متواترة ومضطردة ليس لها إرادة ولا عقل ولا تختلف من مكان لمكان . ومن هنا كان المنهج التجربي الإمبيريقي القائم على المشاهدة والتجربة والتفسير العقلي والمقارنة والتعميم هو المنهج المناسب . أما في عالم الإنسان والمجتمع فالظواهر ليس لها نفس الخصائص من الإطلاق والوحدة والعمومية . فهي ظواهر تتأثر بفكر الإنسان وإرادته وظروفه الثقافية والتاريخية وأساليب التربية والتعليم، كما تتأثر باختلاف البيئات الجغرافية والنفسية والثقافية . ومن هنا كانت الظواهر الإنسانية والاجتماعية ظواهر نسبية تحتاج في دراستهالمعايير وضوابط منهجية واجتماعية وإلى توجهات ومنطلقات فكرية لفهمها ودراستها وضبطها . هذه المعايير والتوجهات والمنطلقات والضوابط استنبطها رواد المسلمين من الشريعة الإسلامية، وهي مصدر إلهي حددها خالق الإنسان وبارئه . وقد أدرك رواد المسلمون استحالة استنباط هذه الأمور من فلسفات وضعية أو مصادر بشرية، لأنها قد تصلح لعصر ولمجتمع في ظروف محددة، لكن يستحيل أن تصلح لكل الناس في كل المجتمعات وكل العصور . ولكن علماء الغرب وأنكانوا توصلوا إلىأهمية وضرورة هذه المنطلقات والتوجهات والضوابط، لكنهم اصروا على

استنباطها من فلسفات وضعية كما اصروا على اتباع الفلسفة والمنهج الوضعي على اعتبار أنه المنهج العلمي الوحيد لمعتمد لعلم والبحث العلمي . وإذاكانوا قد تأثروا بتجربتهم الدينة المريرة فقد استبعدوا كل مصادر الدين والوحي عمدا، واضطروا إلى اللجوء إلى فلسفات وضعية بعضها خيالى وبعضها فلسفي يستمدون من هذه المنطلقات والمعايير والتوجهات، مثل فلسفات العقد الاجتماعي عند أنصار الاتجاهات الليبرإلية، والفلسفة الماركسية عند أنصار الاتجاهات الراديكإلية .

كل هذا يثير أهمية طرح قضي التوجية والتأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية، فالدارس لمجتمع وللنظم والعلاقات والتفاعلات والعمليات الاجتماعية، يلحظ فورا أن هناك في اي موقف تفاعل الاف الافعال الاجتماعية، والاف الوقائع الاجتماعية، ولا يمكن الأنطلاق لدراسة هذا العدد الهائل من الظواهر والعمليات دون الاستناد إلى اطر تصورية مسبقة، او اطر تفسيرية يستعين بها الباحث، او إلى معايير للتمييز بين ماهو سوي وما هو منحرف، او إلى مفاهيم قادرة على تصنيف هذا الواقع في فئات محددة (مثل مفهوم النسق والنظام والطبقة والحقوق والقانون...) . كذلك لا يمكن لأنطلاق لدراسة المجتمع دون رؤية استراتيجية تحدد للباحث شروط المجتمع المتقدم، المتكامل والقوي، وخصائص هذا المجتمع الذي تسوده الحرية والعدالة والمساواة ومضامين هذه المسميات، كما تحدد خصائص المجتمع المتخل، وإلىات تحقيق النومو والتكامل والقو . وإذاكان من الممكن تحقيق الاتفاق على هذه الأمور في المجالات المادية كالاقتصاد والتعليم والصحة والاستهلاك ..، فإنه في بعض المجالات تختلف؛بل وتتناقض الرؤي كما هو الحال في تحديد أهمية ومفهوم الأسرة،

الحرية، العدالة ...والعلاقات بين الجنسين، وضوابط وعايير السلوك السوى والمنحرف ومفهوم ومحددات الجريمة والأنحراف، وحقوق الإنسان ... إلخ . هذه الأمور سوف تكون مواضع لتنأول التفصيلي فيما بعد .

لماذا التأصيل ؟ أو التوجيهثم هل التوجيه الإسلامي والثقافي لهذا العلم في بلدنا بدعه أم أن علوم اجتماع الغرب والشرق كلها تتسم بالتوجيه الإيدولوجي والثقافي والتاريخي؛ بل والديني وهل يمكن تخليص هذا العلم من العوامل الذاتية، خاصة في مجال النظريات الكبرى وهناك أسئلة أخرى كثيرة حول التزام كبار علماء اجتماع الغرب بالجدية والموضوعية.

وما يهمنا هنا هو أبراز السياق المنهجي والنظري الذي يثار خلاله قضية التوجيه أو التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية . فل هذه العلوم بحاجه إلى تأصيل او إلى توجيه؟ ولماذا ؟ ثم ماهي اشكإلات هذا التوجيه او التأصيل ؟ وماذا لو لم يتحقق هذا التأصيل ؟

يلاحظ أن العلوم الطبيعية والحيوي خاصة في المجالات المتقدمة فيها والتى وصلت فيها إلى حقائق لا يوجد فيها مدارس متصارعة . فلا توجد مدرسة للجاذبية، أو مدرسة للتشريحاو مدرسة للضوء غربية او اخلري شرقية .

لكن في العلوم الاجتماعية تتعدد المدارس وتتصارع في كل مجال من مجالاته . فهناك المدارس الرأسمالية المتعددة، وهناك المدارس الاشتراكية، وهناك المدارس المختلطة . وعلىمستوى نظريات علم كعلم الاجتماع، هناك نظرية البنائية الوظيفية، وهناك التبادلية السلوكية، وهناك مدارس ونظريات الصراع بأطيافها المختلفة، وهناك النظريات النقدية، ثم هناك

المدارس الموجهه دينيا، ونفس الأمر في علوم السياسية والاقتصاد والسكانوالإنسان ...إلخ .

ولعل هذا هو ما حدا ببعض الدارسي مثل (راد كلف براون) أحد رواد الأنثروبولوجيا الوظيفية المعاصرين في انجلترا إلى القول أنه لا توجد مدارس في العلم، وأنه على العلوم الاجتماعية أن تتحول إلى نسق من العلم الطبيعي، وإلا خرجت تماما من نطاق العلم. وهذا ما يرفضه العديد من الدارسين المتميزين في علوم الاجتماع والإنسان مثل (ايفانز بريتشارد) الأنثربولوجي البريطانية، وماكس فيبر العالم الالمأني، وكارل بوبر عالم المناهج البريطانية المتميز .

فهناك حاجة إلى فهم جذور فكرة أسلمة العلوم الاجتماعية أو تأصيلها أو توجيهها توجيها إسلاميا . وما هى جذور ومضامين كل من هذه المصطلحات التي برزت على ساحة البحث في العلوم الاجتماعية على مذي إلخمسين سنة الأخيرة، وهي أسلمة العلوم الاجتماعية، والتأصيل الإسلامي لها، او التوجيه الإسلامي لها، ما الفرق بينها، ومن هم العلماء؟ وما هي المؤسسات التي تبنت كل مفهوم من هذه المفاهيم ؟ أو ما هي أهدافها وإلىات التنفيذ التي وضعتها لتنفيذ هذه الأهداف ؟ . ثم ما هي الضوابط التي يجب أن يلتزم بها كل من يتصدى للأسلمة أو التأصيل أو توجيه العلوم الاجتماعية اسلاميا . هذه الضوابط مسألة منهجية ونظرية وعقائدية مهمة حتى لا تنقلب هذه العلوم إلى نوع من الفلسفات فارغة المضمون او الاراء الشخصية أو إلى نوع من الدروشة والتمسح بالدين دون ضوابط وحدود تضمن الموضوعية والعلمية والاصالة والمزاوجة بين الفكر الدينى العقدي والشرعي . أو الفكر الإيمان من جهة والفكر

العلمي الموضوعي بشروطه وإلباته من جهه أخرى . هذا هو موضوع الفصل الثاني من دراستنا هذه .

كذلك هناك حاجة إلى طرح عدة تساؤلات حول موقف علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية المؤصلة اسلاميا من نظريات المعرفة المطروحة في الفلسفة وفلسفة المناهج والفكر الإنساني بشكل عام، ثم ما هي علاقة علم الاجتماع بالشريعة الإسلامية، والثقافة الإسلامية، وبعلم أو علوم الاجتماع في الغرب والشرق بشكل عام، وبعلم الاجتمع الديني بشكل خاص، وماذا عن امكانية التعددية في الرؤي والنظريات في إطار علم الاجتماع المؤصل اسلاميا ؟ هل يتعارض هذا مع قداسة النصوص الدينية، وهل يتناقض هذا مع ثوابت الإسلامإلخمسة وهي الاسس العقائدية والمقاصد التشريعية والاحكام القطعية، والمسائل العبادية، والقيم الأخلاقية؟.. كل هذا سوف يكون موضوع دراستنا في الفصل الثالثمن دراستنا هذه .

ونحن في حاجة إلىأن نطرح تساؤلا مهما يتفرع منه تساؤلات فرعية كثيرة، وهو هل التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية يعد ثورة علمية بالمفهوم الذي استخدمه(توماس كون)، إم أنه عودة للجذور الحقيقية للعلوم الاجتماعية . فهذه العلوم في الأصل لم يفرزها الفكر الغربي الأوربي، وأنما ولدت في رحم المجتمع المسلم، وتحت تأثير القرآن والسنة والفكر الإسلامي عقيدة وشريعة . ثم ما هي أهمجوانب الالتقاء والاختلاف بين النموذج المادي في فهم الإنسان والمجتمع بنظمه وعلاقاته وبنائه .. وبين النموذج التأصيلي الإسلامي أو الموجه ثقافيا وتاريخيا؟.

هذا وغيره ما عالجناه في أحدث كتاب لي تحت الطبع الأن :

(نبيل السمالوطي : تاريخ علم الاجتماع في مصر بين التغريب والتوطين (دراسة في علم الاجتماع النقدي)، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية (تحت الطبع) .